الباب الرابع

انتصار الإسلام

"تألفوا الناس وتأتوهم. ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم.. أن تأتوا بهم مسلمين أحب إلي من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم".

من وصايا رسول الله لأحدى سراياه.

obeikandl.com

نحن الآن نعيش أياما فإذا في تاريخ كرة الأرض حيث الدولة لله سبحانه. والمجتمع الرباني يقوى ويتعاظم في العالم. ورسول الله ﷺ قد دانت له القوى التي كانت تنائشه من قريب أو بعيد، تتقاطر إلى مدينته الوفود. لكن غزواته لم تكن وحدها التي فرضت سلطانه فثمة الحب الذي يدخل الناس في دينه، والرعب الذي ينصره الله به، والإعجاز الذي يشع نورا وبهاء وبلاغة من آيات الله جل جلاله، والموعظة الحسنة في دعوته، وفضائل شريعته.

وأذاعت بذكر هذا كله انتصارات جنده التي أكدها الله وغارات سراياه التي ينفذها في كل اتجاه.

والسرايا غزوات لا يقودها رسول الله وإنما يشحذ عزائم رجالها بعدهم منه وانفرادهم بمهام يعينها لهم ليصنعوها في قفار تنضج الضب أو جبال لها أيام وليال تتكالب عليهم فيها تضاريس الصحارى القاحلة أو مكايد القبائل الغادرة، تعتقب الجماعة منهم البعير الواحد، لكل منهم نوبة، وترق أقدامهم وتسقط أظفارهم بسيرهم مئات الأميال. فهم يصنعون الصنيع العظيم وهم يعلمون أن الله حاضرهم، وأن رسوله ينتظرهم، ومن أجله يصبرون على لهب الشمس وبرد الطقس والجوع والعطش إلا أن تمطرهم سحابة مارة أو يظهر لهم على الشاطئ حوت يكفي السرية ثم يملؤوا من لحمه الأوعية أو يأكلوا أوراق الشجر أو تبض عين فيشربوا ويغنمهم الله ويرجعوا ظافرين.

والسرايا غزوات مصغرة: عشرة أو أقل أو عشرات أو مئات وإن بلغ جيش مؤتة ثلاثة آلاف يتقاسم حديثها الفصل الأول مع حديث الوفود القادمة من قريب أو بعيد إلى الحرم الآمن بإسلامها وإسلام قومها. والفصل الثاني يدور حول "الرجل" في شخص رسول الله وبيته عليه الصلاة والسلام.

الفصل الأول

من المدينة وإليها

"إنها حرم آمن

إنها حرم آمن

إنها حرم آمن"

حديث شريف

الخطط والأغراض والمبادئ لحروب رسول الله:

انفرد الإمام مالك بن أنس بتفضيل المدينة على مكة، وأرخ رسول الله التاريخ الإسلامي من مقدمه مهاجرا إلى المدينة في ربيع الأول من السنة الأولى، ثم أرجع عمر والصحابة التاريخ إلى أول السنة وهو أول المحرم. وقامت الدولة في المدينة: ديوانها المسجد يرأسها النبي ﷺ. ويعاونه بعض صحبه في وظائفها.

ولقد نقل عن أبي زرعة أن صحابة رسول الله يبلغون مائة وعشرين ألفا، ونقل عن الإمام الشافعي أنهم عند وفاة الرسول كانوا أقل عددا، رووا عنه.

والمحدثون يعتبرون الصحابي من لقى النبي مسلما ومات مسلما ولو ساعة، والساعة في اللغة مطلق الوقت. وعلى ذلك فالذين لقوا الرسول ممن يهتدى بهم أكبر عدد سجله التاريخ لأئمة، في أمة نقلوا إليها دينها من نبعه الأول، سواء منهم الذين استشهدوا في حياته وكانوا قليلين، أو حيوا بعده وكانوا آلافا شاركوا في صنع التاريخ العالمي الذي يسهم به الإسلام في عمر العال، وهم أعضاء "الجهاز العسكري" الذي حقق "الخطة العسكرية" التي اتبعها رسول الله إذ أذن له الله بالقتال.

obeikandl.com

فهذه خطة ربانية يسير فيها الرسول مسيرته في الدعوة، موعودا بالنصر المؤكد، يتأدى من مرحلة إلى مرحلة دون ريث أو عجلة، وتهيئ السماء له الأسباب وأسباب الأسباب، أو الأفعال وردود الأفعال، لتتابع مراحل التنفيذ كما تشاء لها السماء. حتى مبادرات العدو إذ يجمع الجند للحرب كانت تتيح له المبادأة ليشتت جموعه. ومن خططه المثلى كان الهجوم خير وسيلة للدفاع، وكانت غزواته وسراياه كلها دفاعا عن الإسلام.

ولعل أول ما يستلفت النظر من الخطة الحربية تماثلها مع خطة الدعوة، في أن ابتلاء المسلمين بالحرب كعدوان المشركين على الدعوة، وسيلتان لتزويد المسلمين بأسباب القوة في الحرب وفي الدعوة، مثلما أصاب المسلمين يوم أحد فعلمهم أن يستمسكوا بواجب الطاعة، وألا يستعجلوا الغنيمة، فلم ينل المشركون من المسلمين مثلها بعد. وعلمهم ومن جاءوا بعدهم أن يتزودوا للدنيا بالإقبال على الآخرة، وبهذا استطاع الرجل منهم يوم مؤتة أن يقاتل مائة! ويفتح الله عليهم!.

ودلت الحوادث على أن فكر رسول الله وعمله واحد، ومن هذه "الوحدة" اتساق الخطط وشمولها وديمومتها، وفرضها على الأشياء والأشخاص في السلم والحرب، فهذا تقدير العزيز الحكيم سبحانه وتعالى.

من أجل ذلك يبده الذهن من استعراض الغزوات والسرايا وتواريخ حدوثها ومواقعها وتنفيذها، أن يجد ميادين العمليات العسكرية كأنما أعدت لها إعدادا مفصلا! وكأنما القائد هو الذي أعد الميدان وهيأ الوسائل والأسباب، وأنه عليم من قديم بمواقع القبائل في شبه الجزيرة وخصائصها الجغرافية وميادين العمليات فيها، وخبير بأهلها ومياهها وزعمائها.

ونظرة واحدة إلى الخريطة تظهرنا على استحالة الإحاطة بهذا العالم الواسع من شبه جزيرة متباينة التضاريس مختلفة القبائل، لها مساحة قارة تنفذ فيها خطة مسبقة محكمة تتكامل بغزوات أو دفاعات أو سرايا أو مبادرات مباغتة حاسمة أو مهيئة لما وراءها. فلا عجب أن يقرأ المرء بين أوامر القائد الأعظم أن (الملائكة لم تضع أسلحتها بعد)، ويعلن الله تعالى أنه يؤيده بالملائكة وبالجند. ويؤكد له النصر في طول جهاده وإن كان بكفاح الأبطال الذين يتولون أسبابه.

لم تكن السياسة العسكرية الخاصة بتأمين المدينة منذ بعث أولى سراياه إلا الخطوة الأولى في طريق طويل ولكنه معبد، تتواصل الخطوات فيه للسير إلى نهايته، ولا عجب أن ترتبط أولى سراياه بالآخرة من غزواته في السنة التاسعة، في طريق الشام ذاتها. أو أن يبعث أسامة إلى الشام بعد موته ﷺ في السنة الحادية عشرة!

وكان تأمين المدينة بالسرايا التي يبعثها عملا تنفيذيا له ما بعده من علو كلمة الإسلام في شبه الجزيرة وتوهين قوى المشركين وخضد شوكتهم حتى تفتح مكة بعد سنين وترد الوفود إلى المدينة أو تصدر منها، بالرسالة للعالم كما نزلت من نيف وعشرين عاما.

ولا عجب أن تعمل عناصر الطبيعة في خدمة الخطة تسعفها السيطرة على وسائل المواصلات بين مكة والشرق والشمال والجنوب بوضع العدو في متناول ذراع طولى للأسلحة المظفرة. كل أولئك وهو على اليقين حق اليقين من يد الله فوق يده، تؤيده وتحقق له ما وعده من إظهار دينه على الدين كله بمنطق السماء لا بحسبانات أهل الأرض.

وكما رجع العدو عن المدينة منهزما في هجومين متلاحقين (أحد – حمراء الأسد ثم الخندق – قريظة) بآلاف فيها أحزاب العرب من شمال وجنوب وشرق، واستؤصلت شأفة اليهود من داخل المدينة وما حولها كما تسقط الثمرة الجافة، كان رجوع المسلمين من مكة بصلح الحديبية جزاء وفاقا بانتصار السلام و"فتحا مبينا" للدين في داخل مكة وخارجها أطلق البعوث به ثم الجيوش إلى ممالك العالم المعروف.

ومن مخالفة شروط الصلح "جاء نصر الله والفتح" ليعقب فتح مكة السير إلى الروم، عند التخوم في تبوك، لتنهي حروب الرسول وتبدأ مرحلة أخرى لصحبه.

وما كانت مهمة جيش أسامة مجرد رد على عمل العدو بل كانت إيماء إلى ما وراء الحدود ليخرج إليها خليفة الرسول إلى الشام من فور استخلافه.

وكان لعشرات السرايا بين نجد والبحرين شرقا والقدس شمالا ومكة أو الطائف ونجران واليمن جنوبا أغراض متصاعدة محددة لحماية الدعوة ونشرها حتى إذا مات ﷺ ترك للمسلمين وصيته: ألا يبقى في جزيرة العرب دينان.

ودلت الانتصارات الحربية بعظمتها واتساع آثارها في العالم على جلال العقيدة التي وهبت أصحابها القدرة على تحقيق رسالة كانت الدنيا تنتظرها كما أعلن النجاشي وهرقل، وأن الانتصارات وإعجازها لم تكن إلا أعمالا "عارضة" على العمل الأساسي الدائم وهو الدعوة للإسلام وتطبيق كتابه وسنة رسوله في الأمة، وإعداد المجتمع الذي يطبق الشريعة أدق إعداد.

من أجل ذلك يتعين أن نستصحب ما كان يستصحبه رسول الله على الدوام: أن النصر نصر للدين وأنه تعالى قد وعده به من أول الدعوة واستمر يعده به.

* * *

إنه جل وعلا يقول منذ أمر رسوله بنذارة عشيرته {وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} المدثر ٣١. ويقول بمكة عن رسله في سورة غافر ٥١: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} ويقول بمكة في سورة يوسف ١١٠: {حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا} ويقول في سورة الروم ٤٧: {وكان حقا علينا نصر المؤمنين} ويقول في سورة القص ٥: {ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين} القصص ٥.

وتستمر الوعود متضافرة في المدينة مع الانتصارات فيقول في سورة الحج ٣٨ – ٤٠: {إن الله يدافع عن الذين آمنوا} ثم يقول بصيغة التوكيد: {ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز} ثم يرفع النصر إلى مستوى سنة الله أي القانون الذي لا يتخلف فيقول في سورة الفتح ٢٠ – ٢٢ في أثناء ما صنعه من معجزاته التي تحققت من فورها لتكون من فتوح الدين: {وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما. وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شئ قديرا. ولو قاتلكم الذين كفروا لولا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا. سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا} وفي الآية ٢٨ {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله} وفي سورة النور (٥٥): {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا} – فنلاحظ دوام صيغ التوكيد مع تكرار الوعود. وما هذه إلا أمثال. وصدق الله العظيم.

والذين لا يفهمون من هذه النصوص أن جلادة الرسول وبطولات رجاله مردها إلى ثقة لا تتناهى في دين الله سبحانه، صم بكم عمي، لا يسمعون صوت خالقهم ولا ينطقون بشهادة حق ويكذبون أعينهم فيما يبصرون.

وبعض المؤلفين ومنهم العسكريون يرون الانتصارات النبوية عبقريات، لكن المسلمين يرونها آيات على نسق آيات في الكتاب العزيز تنزل في مناسباتها منجمة وتتألف منها ومن أمثالها السور لتأييد الله لدينه. وكمثل ذلك كانت للغزوات والسرايا مناسبات يحقق الله فيها قدره الذي قدره منذ الأزل على يدي رسوله، فاختار الرسول لها طرائق تنفيذها بأصلح القواد أو الرجال ليبلغوا أغراضه نتعالى في الموقع المحدد من المكان والزمان فأفلحوا وأنجحوا.

لهذا صير اختيار الرجل الصالح أمانة دينية وترك فيها وصيته الملزمة لأمته فقال (من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه فقد خان الله ورسوله} ولم يضن ﷺ على السرايا بأعظم الرجال في التاريخ فثمة أبو بكر وعمر وعلي وحمزة وأبو عبيدة بن الحارث وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح وزيد بن حارثة وأبو سلمة وعبد الله بن جحش وجعفر بن أبي طالب وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، والباقون زملاء في هذه المدرسة يقهرون إمبراطوريتين غلبت كل منهما الأخرى من سنين قليلة.

وإنما غلب الإسلام الغالبين معا في وقت واحد بسلاح ليس لهما قبل به هو عقيدة جديدة، ورجال يحرصون على الموت حرص أعدائهم على الحياة.

ولا تهزم سرية أو كتيبة عقد رسول الله لواءها في المسجد، فهي تجاهد لتنتصر أو تستشهد. وتجاهد بفضائل الإسلام لا بالحيلة أو اهتبال الفرص.

وبهؤلاء وتابعيهم رفرفت رايات الإسلام في عشرات أعوام على أجنحة العالم تتبعها نبضات قلبه للعقيدة الجديدة.

والذي يستعرض طريقة أداء السرايا والغزوات وآثارها لا تفجؤه كما لم تفجأ رجالها نصرة واحدة تحدثها الصدفة. فالمحاربون أجمعون يعيشون أو يستشهدون باسطي أيديهم إلى السماء يدعونها. فهذه حرب الله ورسوله للدفاع عن الدين الذي نزل به القرآن، لا حرب انتقام أو سيطرة. وشتان ما هاتان الحربان. إلى ذلك فالمشركون قد أخرجوا المهاجرين من ديارهم إلى الحبشة ومن الباقين من قضى نحبه بأيدي المشركين ومنهم من انتظر ليضطر إلى هجرة جديدة تاركين مساكنهم وأموالهم نهبة المنتهبين، لينجوا بدينهم. ولما فتح الله عليهم مكة لم يجدوا أموالهم أو دورهم بل وجدوها بيعت من المشركين للمشركين ولم تبق لرسول الله دار ولم يرض بأن يستعيدها من غاصبيها، فقد هاجر وصحبه في سبيلي الله وأمن مكة.

الحقائق الثلاث:

ولم تكن القيادة قيادة رجل بل كانت قيادة نبي. بدليل أنه لم يخطئ مرة واحدة في سبع وعشرين موقعة متتابعة إن بمبادرة منه وإن مفروضة عليه، وهو في كلها المثل الأعلى لتحقيق المثل العليا، تجمع أطرافها حقائق ثلاث لا تتكرر إحداها في أي ميدان.

أولاها: القصد الشديد في سفك الدماء وتفادي الصدام ما أمكن والقصد في دماء المسلمين درجة في قيادة الرجال كالعبادة، يحرص عليها كبار القادة. أما الحفاظ على أرواح العدو نفسه بأساليب

شتى مثل العفو عنه، أو الأمر بتفادي الحرب معه، أو بإسلامه قبل منازلته، أو النبذ إليه قبل مهاجمته أو انتظار الأذان أو إحسان معاملة الأسرى أو الحرب النظيفة كما رأينا فيما سلف أو على ما سنرى من أوامر للجند، فكل أولئك وجوه رحمة وعظمة تتضاف إليها بطولات توضح السبب الحقيقي للجلجلة التي خص بها التاريخ العالمي هذه الانتصارات وما هي إلا بعض الأداء "للرسالة".

وإنما أراد الحياة للعدو رحمة منه، بالعالمين ومنهم أعداؤه، وقد ثبت الله في يقينه أنهم داخلون بإذن الله في دينه وصدق دائما يقينه.

لقد باغت مكة مرتين متعاقبتين في عامين ليأخذ أهلها أخذ الفجاءة فيمنعهم من التعبئة للحرب، فحماهم من أنفسهم ومنع سفك الدم في أرض الحرم. ولقد أمن أهلها بعد فتحها ليحفظ للذين طالموا هموا باغتياله أرواحهم! وترك لهم ما غصبوه من ديار المهاجرين وهم السابقون الأولون بل الجند الفاتحون! ولا يتصور امرؤ حدوث المباغتة في المرتين إلا بمعجزتين أو بمعجزات.. ففتح الحديبية تم بعد عام من واقعة الخندق وهي مدة لا تأذن لأهل مكة بأن يأمنوا الثأر منهم أو لأهل المدينة بأن يناموا بعد هجوم المشركين على مدينتهم بعشرة آلاف مشرك من جميع الأحزاب وسبعمائة دارع من بني قريظة!

وكان أداء العمرة بالطريقة التي أسلفناها مظاهرة فجئت مكة بالسلام والسماحة. ولما نهد للمقاومة يومئذ قوم من أهل مكة أحسن المسلمون إسارهم. ولما أردفهم آخرون للغدر ضموهم إلى الأسرى ثم أطلقوا سراحهم.

وكانت الحديبية – دون أن تسيل قطرة دم – هي الفتح المبين. ولا غرو فتلك طرائق السماء إلى أغراضها.

وبعد أقل من عامين أخذت جيوش المسلمين مكة ذاتها مرة أخرى أخذ الفجاءة وكانت عشرة آلاف منها ستة آلاف تجمعت من القبائل، سارت في فيالق لها ضجة ورجة، أياما وليالي، دون أن تدرك أخبارها أرصاد مكة أو سماعاتها،بل قد سبق هذا المسير سفر أبي سفيان ليمد الهدنة ورجوعه مذءوما بخفي حنين بعد أن تنصل منه من راوضه مما لا يسوغ لقريش أن تنام في أمنة أو طمأنينة.

ولما دخل الجيش مكة قال ﷺ لأهلها وهم عزل، يخفضون جناح الذل، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

فدخلوا في دين الله أفواجا.

وثانيتها: دلالة الأرقام على جلالة الدين الذي يدافع عنه المحاربون: إن حديث الشهداء في جميع الغزوات التي بلغت سبعا وعشرين، أو أكثر إذا أضيفت إليها سرية مؤتة، بلغت دلالاته درجات في المعجزات من أكثر من وجه:

ففي الغزوات إعجاز من تبادر آلاف المحاربين جياعا أو عطاشا مثخنين بالجراحات، أو بلا سلاح إلا القليل، إلى طلب الاستشهاد، كعمير بن الحمام يلقي التمرات فلا يأكلهن حتى لا يتأخر عن دخول الجنة، ومنهم من قضى نحبه ومنهم ن وهبه الحياة حرصه على الممات وهم كثيرون في أكثر من مائة سرية وبعثه وغزاة، على مدى بضع سنوات يهاجمون فيها العدو في عقر داره ومحاربوه جامون رواء، وفي زمهرير خيبر لم يجد مولى رسول الله من يلحفه بلحاف. فأشركه رسول الله ﷺ معه في لحافه!

وثمة المعجزة التي تتضافر في إبرازها المعجزات: أن الغزوات من المسلمين أو المشركين لم يستشهد فيها جميعا طوال سنوات عشر إلا واحد وأربعون ومائة رجل!! ١٤١ بما فيهم شهداء سرية مؤتة! معروفة أسماؤهم. فهؤلاء أو نحوهم أقل الجماعات عددا في سجل البشرية يحدث في تاريخها أكبر مقدار من الآثار. وأي أثر كانتصار الإسلام وانتشاره!

ومنها كثرة ما أبقت على قيد الحياة من الصحابة والتابعين الذين حفظوا القرآن وباشروا دعوة رسول الله معه أو من بعده وعلموا القرآن ونقلوا السنن وطبقوا الشريعة بدقة تؤيد وصفها العالمي وتؤكد أن رسالتها خاتمة الرسالات.

ومنها أنهم أعادوا المرتدين إلى الدين في أشهر معدودات من خلافة أبي بكر ومنها أن يتم على أيديهم تدمير إمبراطورية الفرس إلى الأبد وإمبراطورية الروم بسورية ومصر وأفريقية لتفتح الآفاق أمام جند الدعوة لنشر الدين على مدار القرون.

ولقد أحصى الشهداء وسجل الأسماء من عاصروا الوقائع في حياة الرسول أدق إحصاء.فهؤلاء أصحاب الجنة (راجع صفحتي ٣٠٠ – ٣٠١) ولسوف يستشهد الكثير غيرهم – بعد وفاته ﷺ – في حروب الإسلام لأن النصر لا يرجى إلا بهم، كما أعلن المثنى بن حارثة قائد جيش العراق لخالد بن الوليد.

وهذه الأرقام دلائل على أن دين الله قد بلغ شأوه في حياة رسوله بإيمان الرجال بالله ورسوله لا بالدم المهراق، وأي معجزة كهذه المعجزة! [٨٨]

وإذا كان قتلى الحرب العالمية الأخيرة (١٩٣٩ – ١٩٤٥م) بين خمسة وثلاثين وبين ستين مليونا من البشر وقد تخلف عنها من اليأس والهلع والرعب النووي ما يميت الناس موتات قبل أن يموتوا، فللناس أن يدركوا صنيع الله لهم بالإسلام – وهو دين السلام – وقد ثبت أركانه محاربون ربانيون أو محاربون كان جند السماء لهم زملاء.

وثالثتها: أن يد الله كانت فوق أيديهم: تعطيهم دائما أكثر مما يطلبون: كانوا يحاربون وهم مكثورون بضعفين، على الأقل، ويؤتيهم الله في الميدان نصرين، على الأقل،ويؤتيهم في غير الميدان ما يستعصى على الإحصاء! في بدر لم يخرج الرجال للحرب فكانوا غير مسلحين... وحاربوا جيشا مسلحا عدته ثلاثة أضعافهم وآتاهم الله النصر، وأضاف غنائم فداء الأسرى بالمال وبألف رمح وتعليم بعض المسلمين.

وأصبحت بدر هي المعركة الكبرى التي مكنت للدولة حتى قيام الساعة.

وتلاها جلاء بني قينقاع.

وفي أحد – حمراء الأسد كانوا ربع العدو في العدد.. فانتصروا في اليوم الأول بسلامة (المدينة) من الاقتحام أو التدمير وفي اليوم الثاني بتعجيل العدو في الانسحاب أو الخلاص منهم.

وأصيب العدو باليأس الذي قضى على ثقته في نفسه من الحرب وحده.

وتعلم المسلمون الدرس الخالد للانتصار.

وفي اجتماع الأحزاب يوم الخندق ومعها بنو قريظة كان المسلمون أقل من الربع بالنسبة للعدو، وانتصروا في اليوم الأول بانسحاب العدو وفي الغد ظفروا ببني قريظة. وقال رسول الله:الآن نغزوهم ولا يغزوننا... وقد فعل.

---

(٨٨) يضاف إلى هذا الرقم ٣ في فتح مكة فتصبح الجملة ١٤٤ ويراعى أن غزوة ثقيف سميت في الرسم غزوة الطائف باسم البلدة. وإذا جمعنا شهداء السرايا وبعث الرجيع ٦ والقراء ٣٠ أو نحوهم وعددا من سرية الأخرم إلى بني سليم وسرية ذات أطلاح لم يتجاوز الشهداء في عصر الرسول المائتين إلا بقليل.

وكان صلح الحديبية فتح الفتوح، دون حرب، فكل فتح في الميادين أو ما وراءها مبني عليه.

وفي خيبر انتصر ﷺ على أصحابها بالفتح القريب ثم أتبع ذلك بفتوح فيما وراءها (وادي القرى وتيماء وفدك) ولم يبق لليهود في جزيرة العرب سلطان.

وفي حنين كانت الانتصار الأول على هوازن، وتبعت ذلك غنائم كثيرة وأتبعه ﷺ بحصار ثقيف لتبقى في جحر، لا يدعو رسول الله عليه بل يدعو له، فيجئ أهلها مسلمين. وتجئ مثلها القبائل مسلمة.

صورة

وفي تبوك. انتصر المسملون إذ اداراً هرقل (في ممتنع بلاده) فلم يحارب وأعقب هذا النصر، نصر دومة الجندل في سرية خالد. أما النصر السياسي فهو دخول تبوك وما حولها في أرض العرب للأبد وتتابع الوفود بالإسلام حتى آخر أيام حياته ﷺ.

وكان جيش أسامة جيشا أعده رسول الله لأبي بكر بعده: سيحارب فينتصر في أرض الشام، ليتبعه بعد نحو عام جيوش أبي بكر إلى فارس والشام في آسيا ثم جيش عمرو إلى مصر فأفريقية.

في السرايا:

وفي السرايا دروس في تثبيت العقيدة والتدريب على البطولة أو القيادة وأخرى في السياسة ودروس للآخرة التي يبتغيها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه تشهد لهم أعمالهم أو أقوالهم في مواقفهم. بل منها ما أصبح سنة في الموقف كركعتي خبيب ﷺ قبل أن يقدم للقتل في سبيل الله ورسوله وسيكررهما حجر بن عدي في حكم معاوية، وسعيد بن جبير وهو يجيب الحجاج بعد أن صلى ركعتين قبل أن يقتله حين سأله أي قتلة تشاء؟ فأجابه: اختر أنت فالقصاص أمامك.

وثمة الدروس التي لا تحصى تستنبطها الأمة من نصوص المعلم الأول ومواقفه ﷺ في غزواته أو عندما يعهد إلى السرايا بتكاليفه، فمن هذه الخطب وتطبيقاتها المعلمة يتألف التراث الذي ينبثق منه القانون الدولي الإسلامي ليكون نبراسا للقانون الدولي العالمي المعاصر وهو ما يزال يحبو ليرقى درجة درجة بعض مراقي القانون الدولي الإسلامي. وفي هذا الأخير صلاح أخلاق الدول في السلم والحرب.

وسترى من استعراض السرايا ما يسكر البصر من صنيع قوم رضي الله عنهم ورضوا عنه. فحيث يوجد أبو بكر وأبو عبيدة توجد الطاعة والأمنة فهذان هما الصديق وأمين الأمة. وحيث يوجد عمر فهناك الفاروق بين الحق والباطل مع الانضباط والتوازن. وحيث يوجد علي يوجد النصر الذي يرتجيه رسول الله. وحيث يوجد خالد فثمة سيف الله كما سماه. كلهم تلاميذ هذه المدرسة.

وفي سرية قادها عبد الرحمن بن عوف أمره رسول الله أن يتزوج بنت الملك ليتألف وقومه كما كان يصنع ﷺ.

وفي سرية مؤتة يستشهد الأمراء أميرا بعد أمير مقبلين لا مدبرين ومعهم بضعة رجال، ليحيا الجيش كله وفيه آلاف لتغزو – بعد – في سبيل الله. وفي سرية قتل المقداد رجلا قال (لا إله إلا الله) فظن قوله حيلة للدفاع وآخذ رسول الله قاتله لأن الرجل أعلن ركن الإسلام وحسبنا من الناس ما يظهر منهم.

وفي السرية الأخيرة التي أمر بإنفاذها ﷺ في أيامه الأخيرة كان يوجه جيوش الإسلام بعد إذ دان به العرب إلى خارج حدودهم ليحيط اليوم بالعالم إحاطة السوار بالمعصم.

ومن السرايا أو البعوث ما أدب به من يهجون الإسلام بالقريض السقيم أو يعقدون الأحلاف عليه.

كان عليه الصلاة والسلام يحدد للسرايا أغراضها وأوقات سيرها وما شاء الله لها مثل أن يقول لهم وهو يودعهم: (سيروا بالليل واكمنوا بالنهار) فهذا السير يقي حمارة القيظ في الصحارى الموحشة. ويخفي أمر السرية ويعمي أعين الجواسيس ويباغت العدو، فيتاح له حقن دمه.

وقد يصحب السرية حتى أطراف المدينة يبارك سيرها ويدعو الله لها ويقول: (انطلقوا على اسم الله. اللهم أعنهم) وقد يمشي وأمير السرية راكب فيسير في ظل راحلته ليعلن في وداعه للسيرة دنو أجله (يا معاذ عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمر بمسجدي وقبري) فيبكي معاذ.

ولما رجع معاذ كان ﷺ قد لحق بالرفيق الأعلى.

وقد تطول الكلمة فتحوي أحكام الحرب ومعاملة أهل البلاد المفتوحة فتكون مصدر التشريع الإسلامي الدولي الذي ثبتت أركانه في كل بلد فتحه المسلمون وكل نفس دانت به.

يوصي الأمير بالتقوى في خاصة نفسه وفيما تحت إمرته بل في العدو وأهله فذنوب الجيش أشد خطرا عليه من عدوه.

إنه يبتغي الإسلام ولا يبتغي الحرب، يقول:

(اغزوا باسم الله في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا.. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خصال ثلاث، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأعلمهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم. فإن أبوا أن يتحولوا فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفئ شئ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين.

فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن أجابوك فاقبل وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

وإن حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك. فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله ورسوله. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا. ثم اقضوا فيهم بعد ما شئتم).

وإنك لتلاحظ أن الفقرة الأولى تنهى عن الغلول والغدر وتمهد لمفاوضة العدو وما بعدها خاص بالوضع الشرعي للبلد المفتوح، وأن الأخيرة كصمام الأمان للجميع بارتفاع العدو للانتفاع بحكم الله وذمته وحكم رسوله وذمته، إذا ألم القائد بشطط. فعندئذ يرد إلى حكم الله. والحرب إن كانت ضرورة للدفاع فإنها كذلك دعوة للعدو للدخول في الإسلام وتأليف للقلوب بما يشهد العدو من محاسن المحارب المسلم وعزوفه عن سفك الدم.

* * *

يقول ﷺ لأحد أمرائه: (تألفوا الناس وتأتوهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم إلى الإسلام فما على الأرض من أهل بيت مدر ولا وبر، أن تأتوني بهم مسلمين أحب إلي من أن تقتلوا رجالهم وتأتوني بنسائهم).

ويقول لأحدى سراياه: (انطلقوا باسم الله ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) وهو هنا يحمي الشيخوخة والطفولة والمرأة. ففي الأولى احترام للحياة التي لا يخاف أذاها وفي الأخريين أمل في المستقبل الذي يريد الإسلام إصلاحه والمرأة أم المستقبل ومنه حياة الطفل. وهؤلاء جميعا لا يحملون السلاح. ويصحب النهي عن إيذائهم النهي عن الغلول والأمر بضم الغنائم وهذان نهي عن مفسدة دينية وأمر بمصلحة عسكرية ويختم خير الختام بالإصلاح والإحسان.

وكما يأمر بالدعوة إلى ثلاث خصال قبل القتال، الإسلام أو الجزية أو القتال، يحذر من القتال حيث يقام لله مسجد أو يسمع للصلاة مؤذن فيقول: (إذا رأيتم مسجدا أو سمعتم مؤذنا فلا تقتلوا أحدا).

وأي عدالة وصلاح دين ودنيا كالشورى والتيسير والتبشير إذ يقول لأبي موسى ومعاذ بن جبل حين أمرهما على اليمن (تشاورا وتطاوعا ويسرا ولا تعسرا ولا تنفرا) ولأبي عبيدة بن الجراح حين بعثه على رأس مدد من سراة المهاجرين لعمرو بن العاص في "ذات السلاسل" وفي المدد أبو بكر وعمر: (كونا جميعا ولا تختلفا) وليس لعمرو سبق في الإسلام على أحد منهم، فلما قدموا هم أبو عبيدة بأن يؤم الناس فهو أمين الأمة. فقال عمرو: إنما قدمت مددا لي وليس لك أن تؤمني وأنا الأمير، قال المهاجرون: (كلا بل أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه) وذكرهم أبو بكر بأن رسول الله أمر عمرا عليهم لعلمه بالحروب.

فقال أبو عبيدة: يا عمرو تعلمن أن آخر شئ عهد إلي رسول الله ﷺ أن قال: (إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا) وإنك إن عصيتني لأطعينك. قال عمرو: فإني الأمير وأنت مدد لي.

قال: فدونك.

وهو عليه الصلاة والسلام يشجع جنده ما أمكنه بفعله أو قوله.

قد يعطي ﷺ سلاحه لمن يقاتل به كعلي وأسامة أو يجمع القول والفعل في كلمات (والذي نفسي بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدا ولكن لا أجد سعة فأحملهم. ولا يجدون سعة فيتبعوني ويشق عليهم أن يقعدوا بعدي. فوالذي نفسي بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله وأقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل)، فلا عجب أ، يدخل الرجال الجنة فاتحين عظماء أو شهداء عظماء وكلهم منتصرون.

أو يعطي ﷺ عبد الرحمن بن عوف لواء سرية فيقول له: (خذه يا بن عوف اغزوا في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تنكثوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا فهذا عهد الله وسنة نبيكم فيكم).

* * *

ولما أعطى اللواء زيد بن حارثة في سرية مؤتة أعلن ترتيب الأمراء وأوصى برجال الدين من العدو ونهى عن التدمير قال: (زيد بن حارثة أمير الناس فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب فعبد الله بن رواحة فإن أصيب فليرتض المسلمون واحدا منهم فليجعلوه أميرا عليهم) واستطرد يخطب الجيش: (اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم وستجدون رجالا في الصوامع معتزلين الناس فلا تعرضوا لهم، وستجدون آخرين للشيطان في رءوسهم مفاحص (أعشاش) فافلقوها بالسيوف لا تقتلن امرأة ولا صغيرا ضرعا ولا كبيرا فانيا ولا تقربن نخلا ولا تهدمن بيتا) (٨٩).

فهو حفيظ على حياة الرهبان وإن كانوا لا يعترفون بدينه.

وفي سرية ساءل أسامة بن زيد بقوله مستنكرا: (يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟) ويجيب الشاب: إنما قالها الرجل خوفا من السلاح فيستمر عليه الصلاة والسلام في مساءلته: (أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم) ليعلم المحاربين وسائر المسلمين أن يقبلوا من الناس ما يظهرونه من الشهادة ولا ينقبوا عما في القلوب.

ويوصي عليا عامئذ في كلم جوامع من آخر وصاياه ﷺ لسراياه: (إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك وادعهم إلى أن يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله فإن قالوا نعم فمرهم بالصلاة

---

(٨٩) ووصايا أبي بكر للفاتحين أقرب العبارات لأقوال الرسول. ومعاهدة عمر لأهل إيلياء مضرب المثل للدول في العدل وكذلك وصاياه لقواده وولاته كما سنرى.

ومعاملة علي لأعدائه في حروب الجمل والنهروان وصفين وعند استشهاده وعهده للأشتر النخعي مدرسة للقانون الدولي الإسلامي، وآخر المبادئ إعلان اقوله وهو طعين بطعنة خارجي غادر: (إنه "أسير" فأحسنوا نزله وأكرموا مثواه...).

ولما طلبوا إليه أن يعهد لابنه الحسن رأى ذلك حقا للمسلمين لا له. ولا عجب وقد خاض الحروب الخارجية العظمى والحروب الأهلية المدمرة أن يأخذ عنه منذ القرن الثاني للهجرة عظماء الفقهاء كمحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة والماوردي وهو شافعي، ومهرة العلماء، فقه الحرب والسلام ومعاملة العدو.

فإن أجابوا فلا تبغ منهم غير ذلك. والله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت).

أما آخرة وصاياه فاثنتان لأسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما:

الأولى: يوم الاثنين لأربع بقين من صفر إذ أمر بالتهيؤ للقتال ودعا من الغد أسامة عند تسييره الجيش وتأميره عليه لينازل من قتلوا أباه في موضع قتله.

والثانية: عندما بدئ وجعه فحم وصدع في يوم أربعاء لليلتين بقيتا من صفر فلما أصبح الخميس عقد اللواء لأسامة وقال:

(اغز باسم الله في سبيل الله من كفر بالله اغزوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة. ولا تتمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم ولكن قولوا: اللهم اكفناهم بما شئت واكفف بأسهم عنا. فإن لقوكم قد جلبوا وضجوا فعليكم بالسكينة والصمت ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وقولوا: اللهم نحن عبيدك وهم عبادك ونواصيهم بيدك وإنما تفنيهم أنت. واعلموا أن الجنة تحت البارقة).

فهو عليه الصلاة والسلام ينظر إلى المستقبل نظرة خاتم الرسل، فيجمل في آخرة وصاياه ما قد طالما وصى به سراياه وصنعه بنفسه في كل غزاة.

وينص صريحا على أن لا يتسارعوا إلى قتال وأن يتحاشوا الصدام ما أمكن: فالحروب قحم فيها غرر، لا يدفعه إلا الالتجاء إلى الله بالدعاء ليهديهم إلى أرشد أمورهم رحمة بهم، وليتذكروا أن العدو من خلق الله وعباده مثلهم، أرواحه بيد الله كأرواحهم، وهو وحده الذي يفنيهم فذلك رحمة به وبهم، وينهى عن التنازع ويأمر بالرأي الجميع في الحرب، حتى إذا لم يجعل لهم العدو معدى عنها، نزلوا عند قضاء الله عليهم. والنصر من عنده وحده وجنته تحت ظلال أسيافهم.

وأبو بكر صديق يسير على المنهج بدقة إذ يقول ليزيد بن أبي سفيان قائد جيش الشام: (ولا تقاتل مجروحا، فإن بعضه ليس منه، أقلل الكلام فإن لك ما وعي عنك واقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله في سرائرهم ولا تجسس عسكرك فتفضحه ولا تهمله فتفسده وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه).

* * *

بهذا، يمكن الوقوف على نبذة من مبادئ الحرب الإسلامية دون أن نعمد إلى إحصاء أو استقصاء:

١- أن الحرب الإسلامية دفاعية. وآية ذلك أن رسول الله لم يقتل في طول ما حارب إلا رجلا جاء يقتله (أبي بن خلف).

٢- أن المسلمين لا يقاتلون إلا من يقاتلهم، ولا يقاتلون قوما سمعوا الأذان فيهم.

٣- أنهم يدعون العدو إلى الإسلام قبل حربه فإن قبله أو دفع الجزية كفوا عنه.

٤- الانتهاء عن التنازع والالتجاء للتشاور، والامتناع عن الغلول أو الغدر بالعدو.

٥- الامتناع عن قتل الشيوخ والأطفال والنساء ورجل الدين من غير المسلمين والتمثيل بالقتلى.

٦- الامتناع عن حرق الأشجار وإتلاف الثمار وهدم الديار.

٧- إحسان معاملة الأشخاص والأشياء.

وأن لا يفرقوا بين أم ووليدها، حتى الطير لا يروعونه بأخذ وليده أو الكلبة لا يفزعونها أو جراءها والجيوش تمر بها، وأن يطعموا الأسرى مما يطعمون فكانوا يؤثرون على أنفسهم وإن كان بهم خصاصة.

والأمر باقتسام الطعام أمر بحسن المعاملة.

٨- الاكتفاء بإعلان الشهادة بالله ورسوله دون تنقيب عن السرائر.

٩- أن الجنة تحت البارقة أي ظلال السيوف وأن المسلم الحق يود – كرسول الله – لو يموت في سبيل الله ثم يحيا ثم يقتل ثم يحيا ثم يقتل مرات.

١٠- أن أحب شئ إلى الله ورسوله أن يأتي المحاربون بأعدائهم مسلمين لا بغنائمهم أو بسبيهم.

١١- أن القواد إذا صالحوا فعلى حكمهم وليس حكم الله. فحكمهم قد يخطئ الصواب ويجب رده إلى حكم الله ليبقى.

١٢- أن لا يقاتلوا جريحا أو مدبرا.

١٣- أن لا يتجسس القائد على جنده فيفضحه.

obeikandl.com

١٤- ألا يتمنوا لقاء العدو ولا يعجلوا إلى الحرب، وفي هذا نهي عن الصدام ما أمكن. والله وحده الذي يفني العدو. وهذا يوضح موقف الإسلام من الحرب والسلام.

١٥- أن الحروب على ضخامتها وعظم نتائجها والسرايا وجليل خطرها لم تكن إلا عملا جانبيا تدعو إليه ضرورات السلامة وإنما الدعوة إلى سبيل الله هي الغاية المرتجاة.

من سرايا رسول الله عليه الصلاة والسلام:

لم يكد رسول الله يرتب أمور أهل المدينة في السنة الأولى حتى بعث في أوائل سنة اثنتين سريتين يقود كلا منهما بطل من بني عبد المطلب "الأول" عمه "أسد الله" حمزة و"الثاني" ابن عمه عبيدة بن الحارث وأرسل سرية بقيادة سعد بن أبي وقاص وهو من أخواله. وأتبعها أخرى بقيادة سعد في رجب من السنة الثانية. وفي الشهر ذاته أرسل سرية بقيادة ابن عمته عبد الله بن جحش ليرصد قريشا في موقع خطير بعيد بين مكة والطائف. وفي العام ذاته بعث بعثين ليكتم أحدهما أنفاس عصماء بنت مروان وكانت تسب النبي ﷺ وتحرض عليه ويقتل الثاني أبا عفك اليهودي بالمدينة كذلك. ثم وقعت وقعة بدر في رمضان ثم أرسل سرية قتلت كعب بن الأشرف من بني النضير وكان شاعرا يهجو النبي وصحبه ويؤلب الكفار عليه.

وأرسل زيد بن حارثة في جمادى الآخرة سنة ثلاث على رأس سرية لاعتراض عير لقريش سلكت إلى الشام طريق العراق بعد أن علمتهم معركة بدر أن طريق الشام لم تعد قاصرة، فملأتهم سرية زيد رعبا من الطريق الجديدة ولهذا ولغيره وقعت وقعة أحد.

أما سرية الرجيع ففي صفر سنة ثلاث وكانت من ستة، أمر عليهم مرثد بن أبي مرثد وقيل عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، طلبهم وفد من قبيلتي "عضل والقارة" ليعلموهم الإسلام فأسلموهم غدرا لبني لحيان فقاتلوهم فاستشهدوا إلا خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة أسروهما فباعوهما لقريش فقتلتهما.

وفي أول المحرم من السنة الرابعة بعث سرية أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد – وأمه برة بنت عبد المطلب – إلى قطن ثم أرسل سرية بقيادة عبد الله بن أنيس إلى جوار مكة وهو أنصاري ممن بايعوا بيعة العقبة.

وعلى رأس ستة وثلاثين شهرا من الهجرة أرسل سرية من ثلاثين رجلا أو أكثر تسمى سرية القراء وكانوا شبابا فيهم المهاجرون والأنصار، طلبهم أهل نجد ليعلموهم شرائع الإسلام فاستصرخ عليهم عامر بن الطفيل قبائل عصية ورعل وذكوان فقتلوهم إلا واحدا عند بئر معونة وكان في

الشهداء المنذر بن عامر من النقباء وعامر بن فهيرة، ثالث الثلاثة يوم الهجرة، وحرام بن ملحان أخو أم سليم.

وقتل عمرو بن أمية الضمري خطأ – إذ هو راجع بالخبر – اثنين حسبهما من العدو وظهر أنهما من بني عامر حلفاء يهود بني النضير فاستحقت ديتهما على قاتلهما فاستعان رسول الله ببني النضير ليدفع ديتهما. وذهب إليهم في صحبه، وأدرك أنهم يحاولون قتله فانسحب وكانت غزوة بني النضير.

وعلى رأس تسعة وخمسين شهرا من الهجرة أمر محمد بن مسلمة على سرية قبل نجد فأسرت من زعمائه أسامة بن أثال: فأسلم وقصد إلى مكة ليعتمر، فهموا بإيذائه فتوعدهم ألا تجيئهم من نجد حبة قمح، ولما أطلقوه منع منهم القمح من نجد فكتبوا إلى رسول الله مستغيثين، فأغاثهم ﷺ فجاءهم قمح نجد.

وفي هذا العام كانت غزوات رسول الله دومة الجندل والخندق وقريظة.

وفي ربيع الأول سنة ست أرسل عكاشة بن محصن في سرية على طريق نجد.

وفي أول ربيع الآخر أرسل محمد بن مسلمة على سرية إلى ذي القصة (على طريق العراق) ثم أرسل إليها أبا عبيدة بن الجراح في أواخر ربيع الآخر.

وفي الشهر ذاته أرسل زيد بن حارثة في سرية إلى بني سليم فهذه سرايا أربعة في شهرين.

* * *

ثم أرسل زيدا في مائة راكب يترصدون عير قريش فأخذوا فضة كثيرة لصفوان بن أمية بن خلف وأسروا أبا العاص بن الربيع بن عبد شمس زوج زينب بنت رسول الله وغافلهم أبو العاص فهرب من القافلة إلى المدينة واستجار بزينب فأجارته.

فلما صلى رسول الله الصبح وكبر والناس معه نادت زينب من صفة النساء: أيها الناس إني أجرت أبا العاص بن الربيع فلما سلم عليه الصلاة والسلام قال: (يا أيها الناس هل سمعتم ما

سمعت؟ قالوا: نعم. قال: أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشئ من ذلك حتى سمعت ما سمعتم. المؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أدناهم).

ثم دخل منزله فدخلت زينب عليه تطلب أن يرد على أبي العاص ما أخذ من قافلته فقبل وقال: (يا بنيتي أكرمي مثواه ولا يخلص إليك. فإنك لا تحلين له) وبعث إلى السرية فقال: (إن هذا الرجل منا حيث علمتم وقد أصبتم له مالا فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإنا نحب ذلك، فإن أبيتم فهو فئ الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به).

قالوا: يا رسول الله بل نرده عليه.

وروى ابن هشام أن نفرا قالوا لأبي العاص: هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال فإنها أموال المشركين؟ فأجاب: بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي. أو قال: بئس ما أمرتموني به أن أفتتح ديني بغدرة.

ثم احتمل أبو العاص إلى مكة وأدى إلى كل ذي حق حقه ثم قام فقال: يا أهل مكة هل بقى لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟... هل أوفيت بذمتي قالوا: جزاك الله خيرا. قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله – والله ما منعني من الإسلام عنده إلا أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أديتها إليكم وفرغت منها أسلمت. ثم خرج إلى النبي في المدينة. قال ابن عباس: رد رسول الله عليه زينب بالنكاح الأول. وقيل بنكاح جديد.

وفي جمادى الآخرة سنة ست أرسل زيد بن حارثة في سرية إلى بني ثعلبة فهربوا منه إلى الجبال فاستاق نعمهم وشياههم ورجع إلى المدينة.

وأمر أب بكر على سرية غزت فزارة بوادي القرى وفي شعبان أرسل عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل في سبعمائة فعممه وأمر بلالا أن يرفع اللواء إليه وخطب خطبته المشار إليها قبل.

وسارت السرية حتى بلغت دومة الجندل فمكث يدعوهم للإسلام ثلاثة أيام حتى أسلم ملك القوم، وكان نصرانيا. وكتب عبد الرحمن إلى النبي ﷺ بذلك فبعث إليه أن يتزوج بنت الملك تماضر بنت الأصبغ وهي أم محدث القرن الأول أبي سلمة بن عبد الرحمن.

وبعث زيد بن حارثة في سرية إلى مدين تجاه تبوك ولما عادت بالسبايا سمعهم رسول الله يبكون للتفريق بينهم وبين أبنائهم فقال ﷺ: (لا تبيعوهم إلا جميعا) وفي شعبان بعث عليا في سرية إلى بني سعد بن بكر فغنمت خمسمائة بعير وألفي شاة.

وفي رمضان بعث زيد بن حارثة من جديد في سرية إلى وادي القرى فظفر ورجع إلى المدينة وطرق باب رسول الله فخرج إليه، كما قالت أم المؤمنين عائشة (عريانا يجر ثوبه ووالله ما رأيته عريانا لا قبلها ولا بعدها فاعتنقه وقبله).

وبعث بعبد الله بن عتيك في جماعة فيهم عبد الله بن أنيس فقتل سلام بن أبي الحقيق اليهودي في حصنه بخيبر لتأليبه القبائل على المسلمين.

وبعث عبد الله بن رواحه في أواخر رمضان في سرية قتلت أسير بن رزام من اليهود بخيبر لنفس الأسباب.

ثم جاءه ثمانية من عكل وعرينة فأسلموا ثم قتلوا رعاء النبي وسرقوا لقاحه فبعث عليهم كرز بن جابر فحاربهم وأسرهم وطبق عليهم حد قطع الطريق. ثم أرسل عمرو بن أمية الضمري ليجزي أبا سفيان عما صنعه إذ أرسل رجلا يفتك برسول الله.

واصطحب عمرو بن أمية الضمري زميلا وعرفوه بمكة وهرب، ولما شارف المدينة رأى في الضواحي عينين بعثت بهما قريش فرمى أحدهما بسهم فقتله وربط الآخر في حبل وجاء به إلى النبي فضحك لأخباره ودعا له بخير.

وتمضي بقية سنة ست في عمرة الحديبية وهي (الفتح المبين).

وإنك لتلاحظ كثرة السرايا سنة ست حتى لتبلغ بضعة عشر مما قد يشير إلى أنه كان يظهر القوة للقبائل في كل الأنحاء، من قريب أو بعيد، فيزيغ إليها أنظار قريش لتعمى عن غرض كبير له هو عمرة الحديبية أو (الفتح المبين).

وبعد الحديبية بعث أبان بن سعيد بن العاص بن أمية قبل نجد وعادت السرية لتلقى رسول الله قد فتح خيبر.

وفي شعبان سنة سبع أرسل عمر بن الخطاب على رأس سرية إلى هوازن على مبعدة أربع ليال من مكة فكانت السرية تسير الليل وتكمن النهار فهرب القوم ولم ير عمر أن يحارب (خثعم) كما اقترح عليه بعض لأن رسول الله سمى له هوازن ولم يبح له حرب غيرها.

وفي الشهر ذاته أرسل أبا بكر على رأس سرية إلى نجد فحاربت السرية بعض القبائل. فهذان وزيراه يطلق سريتيهما إلى أبعد الأنحاء وأشقها.

وفي شعبان كذلك أرسل بشير بن سعد في سرية إلى فدك فهذه سرايا ثلاث في شهر واحد وفي أنحاء متباعدة من شبه الجزيرة. أولاها تتخطى مكة وعلى رأسها عمر بن الخطاب والثانية تصل إلى أقصى المشرق وعليها أبو بكر والثالثة تتجه شمالا نحو فدك.

وفي رمضان سنة ٧ أرسل غالب بن عبد الله الليثي في سرية إلى نجد وفي شوال بعث سرية على رأسها بشير بن سعد في ثلاثمائة رجل ليفاجئ جموعا بين خيبر ووادي القرى في الشمال جنوبي الشام كانت تتجمع لمهاجمة المدينة فتفرقت الجموع وعادت السرية بأسيرين أسلما.

وفي ذي الحجة سنة ٧ بعث سرية بقيادة الأخرم بن أبي العوجاء إلى بني سليم في خمسين رجلا فاستعرت الحرب بينهم وقتل كثير منهم وجرح ابن أبي العوجاء.

وفي صفر سنة ثمان أرسل سرية بقيادة غالب بن عبد الله الليثي إلى الكديد قريبا من مكة.

فسرايا المدينة تضرب في جنوب مكة وشمالها منذ شعبان سنة سبع.

وأعاده رسول الله على رأس سرية أخرى في رمضان عددها مائة وثلاثون رجلا إلى الميفعة على ثمانية برد من المدينة بناحية نجد فأعملوا في القوم السيوف وكان في السرية أسامة بن زيد من أصغر الجند سنا فخرج في أثر رجل من القوم يسمى مرداس بن نهيك جعل يتهكم في أسامة حتى إذا دنا منه قال مرداس: (لا إله إلا الله) وقتله أسامة ولما رجعوا قال رسول الله له: (بئس ما فعلت تقتل امرأ يقول لا إله إلا الله) فندم أسامة وسقط في يده فأمره بعتق رقبة للقتل خطأ.

وفي إحدى سراياه زيد بن حارثة قتل رجالا من قوم أنبهوه على أنهم مسلمون فسار نفر منهم إلى المدينة فشكوا إلى رسول الله أن زيدا قتل بعضا منهم. قال ﷺ: (كيف أصنع بالقتلى) ثلاث مرات. قالوا: لا نريد غلا إطلاق الأموال والسبي. قال: (انطلق معهم يا علي).

فقال علي: يا رسول الله إن زيدا لا يطيعني.

قال: (فخذ سيفي هذا) أمارة لزيد.

ولما لقوا زيدا راجعا بغنائمه وسبيه قال علي: إن رسول الله يأمرك أن ترد على هؤلاء القوم ما كان بيدك من أسير أو سبي أو مال. قال زيد: أريد علامة من رسول الله.

قال علي: هذا سيفه. فرد للناس غنائمهم وسبيهم ورد كل رجل سبعة أبعرة أو سبعين شاة وامرأة أو امرأتين.

وفي ربيع الأول سنة ٨ أرسل شجاع بن وهب الأسدي في سرية إلى جمع من هوازن عند ماء على ثلاث مراحل من مكة وعادت السرية بغنائمها بعد خمس عشرة ليلة.

وفي الشهر ذاته بعث سرية إلى ذات أطلاح من أرض الشام بقيادة كعب بن عمير الغفاري في خمسة عشر رجلا فوجدت جموعا كبيرة فتراموا بالنبل ونجا كعب وعاد فأبلغ رسول الله فعزم أن يبعث بعثا جديدا لولا أن جموعهم تفرقت. مؤتة أو سرية الأمراء.

في جمادى الأولى بعث كبرى سراياه إلى مؤتة وقال عليه الصلاة والسلام: (زيد بن حارثة أمير الناس فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب فعبد الله بن رواحة فإن أصيب فليرتض المسلمون واحدا منهم..).

وأوصاهم أن يأتوا موضع مقتل الحارث بن عمير الأزدي. وكان يحمل رسالة إلى قيصر ملك الروم وقيل ملك بصرى ليسلمها لقيصر فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله صبرا ولم يقتل لرسول الله رسول غيره.

خرجت السرية في ثلاثة آلاف وصحبها رسول الله حتى بلغ ثنية الوداع فخطبهم مودعا.

ومؤتة بأدنى البلقاء على مرحلتين من بيت المقدس، والبلقاء دون دمشق.

ولما فصل المسلمون عن المدينة كانت أرصاد الروم قد نقلت أخبارهم فتجمعوا لهم وفيهم شرحبيل بن عمرو في أكثر من مائة ألف، فلما نزل المسلمون وادي القرى بعث من طلائعه خمسين اقتتلوا مع المسلمين فكشفهم المسلمون وقتلوا أخاه ومضوا حتى بلغوا بلدة معان من أرض الشام، وإذا هرقل ملك الروم ينتظرهم في مائة ألف أخرى، وانضم إليهم من قبائل المشركين العرب مائة ألف ثالثة. وأصبح آلاف ثلاثة من المسلمين يواجهون آلافا ثلاثمائة! فتشاوروا ليطلبوا مددا من رسول الله. فشجعتهم كلمات عبد الله بن رواحة: (يا قوم والله إن التي تكرهون لهي التي خرجتم تطلبون: الشهادة. وما نقاتل بعدد ولا قوة ولا كثرة ومانقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة وليست بشر المنزلتين).

وتلاقى الجيشان فكان المسلم الواحد يقاتل مائة.

حمل زيد بجيشه على العدو فقتل ثم أخذ الراية جعفر فطاعن بجيشه في نحر العدو حتى قتل وفي جسده بضع وستون جراحة من طعنة ورمية ليس منها شئ في دبرة. ثم قاتل ابن رواحة حتى قتل.

فأخذ لواء المسلمين ثابت بن أقرم.

ونادى ثابت الناس: هلم إلي. حتى إذا اجتمعوا حوله مشى باللواء إلى خالد بن الوليد.

قال خالد: لا آخذه منك أنت أحق به.

قال ثابت: والله ما أخذته إلا لك.

وأخذ خالد الراية فدافع القوم. وحاشى بهم ثم انحاز بالناس في المساء. فلما غدا جعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة، والمقدمة ساقة والساقة مقدمة. وجعل الخيل والعير وراء الرجال ليهاب العدو كثرة جمعهم.

وأنكر الأعداء ما كانوا يعرفون عن جيش الأمس وتشكيلاته وقالوا: جاءتهم الأمداد، فرعبوا.

وقيل إن النزال استمر سبعة أيام.

وانكشف العدو بخسائر جسام في حين اقتصرت خسائر المسلمين على أحد عشر!! فدل ذلك على انتصارات أحدثتها هجماتهم مع قوادهم الثلاثة.

وخالد يقول: لقد اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقى في يدي إلا صفيحة يمانية. وهذا القول يدل على اشتداد الحرب بقيادة خالد مثل اشتداده بقيادة سابقيه.

وكم قتلت الأسياف التسعة في قبضة بطل! وما بالك بأسياف ثلاثة آلاف! ولما عاد خالد بالجيش كله إلا أحد عشر رجلا يحفظ التاريخ أسماءهم[٩٠] كانت – لا جرم – عودة جيش

(٩٠) زيد وجعفر وعبد الله – الأمراء الثلاثة – ومسعود بن الأسود ووهب بن سعد وعباد بن قيس وسراقة بن عمرو والأخوان أبو كلاب وجابر ابنا عمرو والأخوان عمرو وعامر ابنا سعد بن الحارث. يراجع الجدول صفحة ٣٠٠.

obeikandl.com

منتصر صارع الإمبراطور بالشام على مدى أيام، وخبر أمره وكبده خسائره. وكل ذلك كان غرضا لرسول الله كما سترى بعد.

نعى رسول الله للمسلمين قواد مؤتة يوم ماتوا، ومن قوله: (حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم) فهذا نص في أن المعركة كانت "فتحا" على المسلمين.

ولما قيل للراجعين يا فرار علم رسول الله فقال (بل هم الكرار).

ولقد بعث خالدا إلى النبي بشيرا سبقه إلى المدينة بشر بما حدث. بل حاز المسلمون يومها الغنائم واستكثر خالد بعضها على بعض حتى شكا لرجل خالدا لتدخله في أمورها. وترضى رسول الله خالدا فقال: (يا خالد. لا ترد عليه وقال للرجل هل أنتم تاركون أمرائي لكم صفوة أمرهم عليهم كدره؟).

إنما كانت مؤتة تدريبا لخالد على قتال الروم في أراضيهم، وتجريبا للمسلمين إذ يقودهم خالد يوم اليرموك فيقتلعون أوتاد الإمبراطورية الرومانية بتمامها وهم مكثورون بجيوش للروم عدتها أضعاف جيوشهم.

وكان لعمرو بن العاص في السرايا دوره في جمادى الآخرة، إذ حشدت قضاعة حشودها لمهاجمة المدينة، ومضاربها تمتد مئات الأميال في طريق الشام، فأرسل رسول الله إليهم عمرا في سرية من ثلاثمائة رجل، معهم ثلاثون فرسا، وأمره أن يستعين بمن يمر به من العرب، فأم أبيه العاص بن وائل من (قبيلة بلى) بأرض الشام فسار بالسرية حتى إذا بلغ ماء يسمى (ذات السلاسل) بعث إلى رسول الله يستمده فأمده بأبي عبيدة بن الجراح يقدم سراة المهاجرين وقد أسلفنا الكلام عنهم.

وأحسن عمرو القيادة فكان يسير الليل ويكمن النهار ويمنع الجند أن يوقدوا النار ليصطلوا عليها من البرد كيلا يعرف العدو أخبارهم، فشق عليهم ذلك حتى غالظوه.. والتحموا بالعدو وقد ناصرته قبائل لخم وجزام في تخوم الشام فاقتتلواساعة فتفرق الأعداء، ودوخهم عمرو حيثما ثقفهم وأطلق الفرسان للبحث عن المؤونة، ولم يوفقوا إلى غنيمة وإن وفقوا إلى ما يطعمونه.

واحتلم عمرو وهو نائم فلم يغتسل وتيمم فلما رجع الجيش أبلغوا النبي ما كان من فرضه الإمرة على أبي عبيدة فأثنى على أبي عبيدة ودعا له: (يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح) كما أبلغوا النبي واقعة التيمم فقال عمرو له والذي بعثك بالحق إني لو اغتسلت لمت ولم أجد بردا قط مثله وقد قال تعالى: {ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما}.

فضحك ﷺ[٩١].

وسريتا مؤتة وذات السلاسل طليعتان للقاء الروم سنرى قائديهما بعد قليل على رأس جيوش الإسلام في الشام وفي أكثر من مكان. وهما طليعتان أيدتهما غزوة تبوك يقودها رسول الله بنفسه.

* * *

والجمهور يجعل سرية أبي عبيدة ليرصد عيرا لقريش في رجب سنة ثمان لحي من جهينة على ساحل البحر وفيها فنى زاد السرية حتى فتح الله عليهم بحوت أخرج إلى الشاطئ فأكلوا وادهنوا وكانوا ثلاثمائة وتزووا ما شاءوا من قديد في الأسقية.

وفي شعبان سنة ثمان أرسل أبا قتادة الأنصاري في ستة عشر رجلا فأقاموا خمس عشرة ليلة قبل نجد وغنموا مائتي بعير وألفي شاة وعدلوا البعير بعشرين من الغنم. فهذه تؤكل وتلك تحمل وترحل.

وفي أول رمضان سنة ثمان أرسله في سرية أخرى إلى قريبة من المدينة. ولعل الأنظار قد وجهت حينئذ إلى تلك الناحية في حين يزحف ﷺ بجيش قوامه عشرة آلاف لفتح مكة في العاشر من رمضان.

وفي إبان غزوة حنين والطائف أرسل أبا عامر الأشعري إلى أوطاس لحرب الفارين إليها من حنين فاستشهد وتولى القيادة أبو موسى الأشعري بوصية من أبي عامر.

وفي ربيع الآخر سنة تسع أرسل علي بن أبي طالب على رأس مائة وخمسين أنصاري لهدم صنم بني طي (الفلس) فسبى سفانة بنت حاتم بين السبي وهرب أخوها عدي. وبعث عليه الصلاة والسلام عكاشة بن محصن إلى أرض عذرة وبلى.

---

(٩١) يقول عمرو عن عجبه بنفسه: حدثت نفسي أنه لم يبعثني على أبي بكر وعمر إلا لمكانتي. فقلت: يا رسول الله من أحب الناس إليك؟ قال: عائشة. قلت: لست أسألك عن أهلك. قال: أبو بكر قلت: ثم من؟ قال: عمر قلت: ثم من؟ قال: ... حتى عد رهطا... فقلت لنفسي: لا أعود أسأل عن هذا. وفي رواية: مخافة أن يجعلني في آخرهم.

وفي سنة تسع أعقبت غزوة تبوك سرية خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك في دومة الجندل.

وفي سنة عشر بعثه إلى بني عبد المدان باليمن وأمره أن يدعوهم ثلاثة أيام للإسلام قبل أن يقاتلهم فأسلموا.

وفي سنة عشر بعث أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل كلا منهما على مخلاف باليمن قبل حجة الوداع.

صورة

وفي إحدى السرايا وجد المسلمون العدو قد تفرق وبقى رجل له مال كثير لم يبرح وقال [أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له] وقتله المقداد بن الأسود قائد السرية فأبلغ أفرادها النبي عليه الصلاة والسلام. فقال له النبي: (كان رجلا مؤمنا يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة).. قال سعيد بن جبير: فنزلت هذه الآية {ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا) النساء ٩٤.

وبعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يستجيبوا للإسلام فبعث عليا بدلا منه. وصلى علي بالمسلمين أمام القوم وقرأ عليهم كتابا عن رسول الله فأسلمت همدان.

ثم بعث عليا إلى اليمن في رمضان سنة عشر فخرج على رأس ثلاثمائة فارس فدعاهم واستعصوا عليه فحاربهم وشتت شملهم وتقدم رؤساؤهم يبايعونه على الإسلام. وجمع ما أصاب من الغنائم وحمل الخمس إلى رسول الله ﷺ.

وبعث عليا وخالد بن سعيد بن العاص إلى اليمن. وقال إذا اجتمعتما فعلي الأمير وإذا افترقتما فكل واحد أمير.

من الوفود إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام:

فتح الله على المسلمين مكة في رمضان من العام الثامن للهجرة وأمنها رسول الله وأصبحت سماحته ورحمته لسان صدق يتردد في أفنية العرب للدخول في دينه. فدخل فيه الحكماء والعظماء من فرسان قريش وساداتها وأنى لكل ذي فكر أو ذكر أن يمد بسبب إلى هذا النور الذيي يمتد امتداد النهار. وأخذت الوفود تنصب إلى المدينة تبايع صاحبه وأخذت من العام التاسع أباطح الصحراء تسيل بأعناق المطي من شتى الأرجاء ميممة شطر المدينة المنورة.

وحديث الوفود لا يمكن حصره وإن لم يكن بد من التذكير بأمثلة معلمة، فمنها ما سبق ذلك التاريخ بكثير أو قليل جاءوا مسلمين، أو سفراء قوم أسلموا أو سيسلمون. ومن هؤلاء أربعمائة رجل من مزينة جاءوا سنة خمس فجعل لهم رسول الله منزلة المهاجرين وهم في دارهم وقال: (أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم). وظاهر من عددهم وبقائهم في أموالهم أنهم كانوا قوة قادرة على الاستقلال في مستقرها والسلامة فيه.

ومن الوفود من هاجر إلى المدينة من مكة قبل صلح الحديبية كنعيم بن عبد الله بن النحام.. بن عدي (من قوم عمر) ومعه أربعون رجلا فاعتنقه رسول الله وقبله.

قال رسول الله له: (قومك خير من قومي).

قال نعيم: لا يا رسول الله قومك أخرجوك إلى الهجرة وقومي حبسوني عنها.

وكان نعيم مسلما من قبل إسلام عمر لكنه كان يكتم إسلامه وعرف قومه فمنعوه من الهجرة قائلين: أقم عندنا على أي دين شئت تكريما لأياديه فيهم.

وجاء بعد موقعة الخندق سنة خمس سبعمائة من "أشجع" فوادعهم رسول الله وأسلموا فيما بعد. وجاءه أبو ثعلبة الخشني وهو ممن بايعوا تحت الشجرة قبل فتح خيبر وخرج معه لفتحها ثم قدم بعد ذلك بوفد بني خشين مسلمين فبايعوا عن قومهم ورجعوا.

وجاءته وفود دوس لتصل الماضي بالحاضر يرأسها الطفيل بن عمرو وكان قد أسلم إذ سمع رسول الله بمكة وغاظ قريشا إسلامه لمكانته من قبيلته وذيوع شعره في العرب وعاد فغالظه قومه فخف إلى النبي بمكة يقول له: ادع عليهم يا رسول الله فدعا "لهم" لا "عليهم" قال: (اللهم اهد دوسا) ولم يزل الطفيل يدعوهم حتى جاء المدينة بتسعين بيتا من دوس مسلمين ثم لحقوا بالرسول بخيبر.

وقتل الطفيل شهيدا باليمامة وهو يقاتل المرتدين وقتل ابنه شهيدا باليرموك شريكا في النصر على الروم.

ووفد بنو عبيد وهم من أهل الحرم، قبل فتح مكة، ليهادنوا الرسول فقالوا: نحن أهل الحرم وسكانه وأعز من به، ولا نريد قتالك. ونحبك ونريد أن نقاتل معك. ولكننا لا نقاتل قريشا. فقبل شرطهم فأسلموا.

وجاءه الأشعريون بعد خيبر سنة سبع يقدمهم أبو موسى وهم يرتجزون: غدا نلقى الأحبة محمدا وصحبه.

* * *

وجاءه زياد بن الحارث بعد فتح مكة وافدا من صداء باليمن ليبايعه عن نفسه وقبيلته وعلم أنه ﷺ بعث قيس بن سعد بن عبادة إذ انصرف من الجعرانة سنة ثمانية ليطأ صداء في سرية قوامها أربعمائة فقال زياد: يا رسول الله جئتك بإسلام قومي.

فقال: (اذهب فردهم) وبعث رجلا رد قيسا.

وكان مع زياد وفد قوامه خمسة عشر رجلا فنزلوا دار سعد بن عبادة أبي قيس فحياهم سعد وكساهم وسار بهم إلى رسول الله فقال لزياد: (أفلا أؤمرك عليهم؟) قال: بلى، فكتب له كتابا، وسأله عطاء فأعطاه.

ثم نزل رسول الله وزياد معه منزلا فشكا أهله عاملهم فقال: (لا خير في الولاية لرجل مؤمن) ثم جاءه رجل يسأل.

فقال له: (من يسأل الناس عن غنى فصداع في الرأس وداء في البطن) فقال السائل: أعطني من الصدقة فأجابه: (إن الله عز وجل لم يرض فيها بحكم نبي ولا غيره من الصدقات حتى حكم فيها فجزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك وإن كنت غنيا عنها فإنها صداع في الرأس وداء في البطن).

فلما نام زياد وصلى الفجر دعاه رسول الله فأتى زياد بالكتابين يعيدهما لأنه سمع ما قاله عليه السلام أمس قال ﷺ: (هو ذاك فاقبل إن شئت وإن شئت فدع فدلني على من أؤمره عليكم) فدله على رجل من الوفد.

كان يكلم كل قبيلة بلهجتها. والقبائل متنازحة الديار في أقصى الشمال الشرقي وفي أقصى الجنوب الغربي وفيما بينهما فربما مد الألف لمن لغته كذلك وربما فخم لمن لغته التفخيم أو أمال لمن لغته الإمالة وربما أدغم لمن لغته الإدغام أو رقق لمن لغته الترقيق.

وهو – بعد – أبلغ العرب يقول عن نفسه:

(أنا أعرب العرب ولدت في قريش ونشأت في بني سعد فأنى يأتيني اللحن) أرسل ﷺ سرية لبطن من خزاعة تأخذ صدقاتهم ومنعهم بنو تميم. فأرسل سرية عليها عيينة بن حصن في خمسين فارسا غزت بني تميم وقدمت بسبايا منهم فجاءه منهم سبعون أو ثمانون يقدمهم زعماؤهم فنادوه من وراء حجراته فآذوه بصياحهم فخرج إليهم.

قالوا: أتيناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا فأذن. وعلت أصواتهم ونزلت الآية ٤ من سورة الحجرات في شأنهم {إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون}.

وكان منهم: الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعطارد بن حاجب، ومعهم عيينة بن حصن، وخطب عطارد وألقى الزبرقان شعره، ووقف حسان للزبرقان وكان ثابت بن قيس بن شماس خطيب رسول الله(٩٢).

قال الأقرع بن حابس: والله إن هذا الرجل لمؤتى له. والله لشاعره أشعر من شاعرنا ولخطيبه أخطب من خطيبنا ولأصواتهم أعلى من أصواتنا.

وأسلم الوفد وأجاز رسول الله كلا منهم بأواق من فضة.

وجاءه وفد ثقيف بعد أن تركهم في حصونهم إثر فتح مكة. فتبادر إليه أبو بكر ليبشره بقدومهم، وضربت لهم قبة لكي يسمعوا القرآن ويروا المسلمين في صلاتهم. ووكل بهم خالد بن سعيد بن العاص، وفاوضوا رسول الله لكي لا يهدموا صنمهم بأيديهم، ويعفيهم من الصلاة فقال: (أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه).

ووفدت وفود حمير من اليمن في رمضان سنة تسع بعد عودة رسول الله من تبوك فكتب لهم كتابا بما يجب عليهم وفيه قوله "ومن بقى على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها".

ووفد الداريون من الشام بعد انصرافه من تبوك. عشرة نفر سمي بعضهم بأسماء للمسلمين: عبد الله وعبد الرحمن وأهدوا إليه أفراسا، وقباء من ديباج مخوصا بالذهب، فقبل الأفراس وأعطى القباء العباس بن عبد المطلب وقال له: "انتزع الذهب فتحليه نساءك أو تستنفقه ثم تبيع الديباج فتأخذ ثمنه" فباعه العباس من يهودي بثمانية آلاف درهم.

---

(٩٢) اختفى ثابت بن قيس بن شماس إذ نزلت الآية ٣ من سورة الحجرات تنهى عن رفع الأصوات عند النبي وافتقده النبي فوجدوه في بيته منكس الرأس مخافة أن يكون قد رفع صوته فوق صوت النبي وعلم النبي بذلك فقال: "نعم الرجل أبو بكر. نعم الرجل عمر. نعم الرجل قيس بن شماس".

وقال تميم الداري: لنا جيرة من الروم لهم قريتانهما جيرون وبيت عينون فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لي. قال ﷺ (فهما لك).

وأقام الوفد بالمدينة حتى وفاته عليه الصلاة والسلام، وكتب أبو بكر لهم كتابا بما وهبه رسول الله.

فها هو ذا رسول الله يهب القرى في الشام مرة إثر أخرى قبل أن تفتح بعد موته.

وجاءه وفد فزارة بعد تبوك فنزلوا الدار التي تنزل بها الوفود، ولم يكن عيينة بن حصن في الوفد، بل كان فيه أخ وابن أخ هو الحر بن قيس طلبوا أن يشفع الله إلى رسوله وأن يشفع الرسول إلى ربه ليرزقهم غيثا يرفع الجدب عنهم. قال "سبحان الله هذا أنا أشفع إلى ربي عز وجل فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه؟ لا إله إلا هو العلي العظيم وسع كرسيه السموات والأرض فهي تئط (تعجز) من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الحديد" ودعا لهم واستجاب الله لدعائه.

وذات يوم أشار إلى المشرق وقال: "سيقدم عليكم من ها هنا ركب هم خير أهل المشرق"، فتوجه عمر نحوهم فإذا هم ثلاثة عشر راكبا من أهل عبد القيس بالبحرين يرمون أنفسهم عن رواحلهم، فمنهم من يمشي ومنهم من يهرول ليبتدروه وهم في ثياب سفرهم، يقبلون يده ورجله ويبقى عند متاعهم أصغرهم.

وهو شاب دميم يدعى المنذر الأشج، يستخرج ثوبين أبيضين من ثيابه فيلبسهما ثم يمشي إلى الرسول فيقبل يده قائلا: يا رسول الله إنه لا يستقى في مسوك (جلود) الرجال إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه قلبه ولسانه. ويقول رسول الله له: "إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة".

قال الوفد: يا رسول الله إنا نأتيك من شقة بعيدة، وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر. فمرنا بأمر فصل إن عملنا به دخلنا الجنة قال: "آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع آمركم بالإيمان بالله وحده. هل تدري ما الإيمان؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وأن تعطوا الخمس من المغنم، وأنهاكم عن أربع (أوعية خمر..)".

ووفد عليه خريم بن أوس الطائي بعد رجوعه ﷺ من تبوك ليسلم.

ويروي خريم قول رسول الله: "هذه الحيرة البيضاء قد رفعت لي، وهذه الشيماء بنت نفيلة الأزدية معتجرة بخمار أسود" قال فقلت يا رسول الله إن نحن دخلنا الحيرة ووجدتها (الشيماء) على هذه الصفة هي لي؟ قال (هي لك)، قال خريم وشهدت مع خالد بن الوليد قتال أهل الردة فدخلنا إلى الحيرة وكان أول من تلقانا الشيماء بنت نفيلة، كما قال رسول الله. فتعلقت بها فدعاني خالد فقال: ألك بينة فأتيته بها وكانت البينة محمد بن مسلمة ومحمد بن بشير الأنصاريين وقيل محمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر[٩٣].

وأقبل وفد من جرم يسلمون ويتعلمون القرآن ويسألون رسول الله من يصلي بهم فقال: "ليصل بكم أكثركم جمعا أو أخذا للقرآن" وكان أكثرهم جمعا غلاما كان يحفظ من الركبان، فقدموه فأمهم وهو ابن ست سنين.

وجاءه جرير بن عبد الله البجلي من اليمن ليسلم فألقى إليه كساءه وقال: "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه" ودعاه إلى الشهادة وللتسليم بالقدر خيره وشره والصلاة والزكاة والصيام وأضاف: "وتنصح لكل مسلم وتطيع الوالي وإن كان عبدا حبشيا".

ومن الوفود وفد حضرموت. وآخر من تميم فيه الحكم بن حزن جاءوه يطلبون أن يدعو لهم بخير فقام متوكئا على عصا وقال كلمات خفيفات مباركات. ثم قال: "يا أيها الناس إنكم لن تطيقوا أن تفعلوا ما أمرتم به ولكن سددوا وأبشروا".

* * *

ووفدت خثعم وكتب لها كتابا بأن كل دم أصابته في الجاهلية موضوع وبين لهم ما لهم وما عليهم.

ووفد عشرة نفر من خولان مسلمين يمثلون قومهم فقال لهم:"ما فعل عم أنس"؟ (يقصد صنمهم) فحدثوه عن خرافاتهم في شأنه وجاءوا بعد أيام يودعونه فأمر لهم بجوائز اثنتى عشرة أوقية لكل منهم، ورجعوا إلى قومهم فكان أول ما عملوا أن هدموا "عم أنس".

---

(٩٣) قال خريم: ونزل إلينا أخوها عبد المسيح فقال لي: أتبيعنيها؟ قلت نعم قال احتكم. قلت لا أبيعها بأقل من ألف درهم. فدفعها. فقيل لي: لو قلت مائة ألف لدفعها. قلت: لا أحسب أن مالا أكثر من ألف درهم – وروى الطبراني أن البينة كانت محمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر.

وقدم وفد بني سعد بن هزيم مسلمين فوجدوه ﷺ يصلي على جنازة مسلم فلم يدخلوا في الصلاة وانتظروا ليبايعوه عن قومهم فلما انصرف من الصلاة نظر إليهم وقال: "أمسلمون أنتم" قالوا: نعم قال "فهلا صليتم على أخيكم؟".

قالوا يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز حتى نبايعك. قال: "أينما أسلمتم فأنتم مسلمون".

وكانوا قد خلفوا أصغرهم عند متاعهم فبعث إليه فتقدم فبايعه قالوا: إنه أصغرنا وخادمنا قال "أصغر القوم خادمهم بارك الله عليه" فكان خيرهم وأقرأهم للقرآن فأمره رسول الله عليهم وكان يؤمهم. ولما انصرفوا أجازهم بأواق من فضة لكل رجل.

وكان حظ الرجل في كثير من الوفود خمس أواق من فضة.

وبشر ﷺ صحبه بوافد جليل قال "يأتيكم وائل بن حجر من أرض بعيدة من حضرموت طائعا راغبا في الله عز وجل ورسوله وهو بقية أبناء الملوك".

ودخل وائل عليه ﷺ فرحب به وأدناه من نفسه وقرب مجلسه وبسط له رداءه وأجلسه مع نفسه عليه، وقال: "اللهم بارك في وائل وولده" واستعمله النبي على الأقيال من حضرموت وأقطعه أرضا. وأرسل معه معاوية بن أبي سفيان. فخرج معه معاوية راجلا. ووائل راكبا على ناقته. قال له معاوية: أردفني خلفك، وشكى إليه حر الرمضاء. قال وائل لست من أرداف الملوك. قال معاوية: أعطني نعلك، قال وائل انتعل ظل الناقة. قال معاوية وما يغني ذلك عني؟

وعاش وائل إلى أيام حكم معاوية – ومع أنه شهد معركة صفين مع علي ضد معاوية – فقد وفد وائل عليه فأجلسه معه على السرير. وذكره معاوية الحديث.. قال وائل فيما بعد: وددت أني كنت حملته بين يدي: ولا ريب أعجبه حلمه.

المرأة في الوفود:

وتجلى في الوفود إلى رسول الله ما جبلت عليه المرأة في الجاهلية من الحرية والنظر الثاقب والكرامة وزادها الإسلام تمكينا بشريعته فكان المسلمات سفيرات للدين حيث وجدن. إليك أمثالا:

١- قدمت قيلة بنت مخرمة مع وفد بني شيبان من العراق على رسول الله ﷺ قالت. فلما رأيته متخشعا في الجلسة أرعدت من الفرق فقال جليسه يا رسول الله أرعدت المسكينة. فقال ولم ينظر إلي وأنا عند ظهره، "يا مسكينة عليك السكينة".

وتقدم صاحبي أول رجل فبايعه على الإسلام عليه وعلى قومه، ثم قال يا رسول الله اكتب بيننا وبين تميم بالدهناء لا يجاوز إلينا منهم إلا مسافر أو مجاور فقال: "يا غلام اكتب له بالدهناء" فلما رأيته أمر بأن يكتب له بها شخص بي، وهي وطني وداري. فقلت يا رسول الله لم يسألك السوية من الأرض إذ سألك إنما هذه الدهناء مرتع الجمل ومرعى الغنم ونساء تميم وأبناؤها وراء ذلك.

فقال "يا غلام أمسك صدقت المسكينة. المسلم أخو المسلم يسعهما الماء والشجر ويتعاونان على الفتان) يعني الشيطان.

قالت قيلة. فلما رأى حيث – زميلها – أن قد حيل دون كتابه ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال: كنت أنا وأنت كما قيل: حتفها تحمل ضأن بأظلافها. فقلت أما والله إن كنت لدليلا في الظلماء جوادا بذي الرحل، عفيفا عن الرفيقة، حتى قدمت على رسول الله. ولكن لا تلمني على حظي إذ سألت حظك قال وما حظك في الدهناء؟ قلت: مرتع جملي تسأله لجمل امرأتك.

وكتب لها رسول الله في قطعة من أديم أحمر (لقيلة وللنسوة بنات قيلة ألا تظلمن حقا ولا تكرهن على منكح وكل مؤمن مسلم لهن نصير. أحسن ولا تسئن).

٢- وهذا وفد يصل الماضي بالحاضر فيروي لنا واحد منه عن واحدة فيه ما تنبئ به مرءاة رسول الله عن ذاته.

قال طارق بن عبد الله من بني محارب: إني لقائم بسوق ذي المجاز إذ أقبل رجل عليه جبة وهو يقول: (أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة يقول: أيها الناس إنه كذاب فلا تصدقوه. فقلت من هذا؟ فقالوا هذا غلام بني هاشم يزعم أنه رسول الله. فقلت من ذا الذي يفعل به هذا؟ قالوا عمه عبد العزى (أبو لهب) فلما أسلم الناس وهاجروا خرجنا إلى الربذة ثم إلى المدينة نمتار من تمرها.. فإذا رجل في طمرين (ثوبين باليين) له فسلم علينا وقال من أين أقبل القوم.. ومعنا ظعينة (امرأة في هودج) وجمل أحمر – فقال أتبيعونني جملكم هذا. قلنا نعم بكذا صاعا من تمر، فما استوفينا مما قلنا شيئا حتى أخذ بخطام الجمل وانطلق به، فلما توارى عنا بحيطان (بساتين) المدينة ونخلها قلنا: ما صنعنا والله؟ ما بعنا جملنا ممن نعرف ولا أخذنا له ثمنا!

فقالت الظعينة لا تلاوموا فقد رأيت وجه رجل لا يغدر بكم. والله لقد رأيت رجلا كأن وجهه شقة القمر ليلة البدر. أنا ضامنة لكم ثمن جملكم.

وأقبل رجل فقال: أنا رسول رسول الله ﷺ هذا تمركم فكلوا واشبعوا واكتالوا واستوفوا. ثم دخلنا المدينة فما دخلنا المسجد فإذا هو قائم على المنبر يخطب الناس فأدركنا من خطبته:

"تصدقوا فإن الصدقة خير لكم. اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول: أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك أدناك"، فأقبل رجل من بني يربوع أو الأنصار فقال: يا رسول الله إن لنا في هؤلاء دما في الجاهلية، فقال: "لا تجني أم على ولد" ثلاث مرات.

ولا غرابة لإحساس الظعينة التي يصبح ظنها يقينا لقومها، إذ ترى فيه أنوار القمر ليلة البدر. فهذا تشبيه طالما عبر به عنه غيرها من النساء والرجال. وضمانها ثمن البعير أثمن تعبير عن هذا اليقين. كما يرتفع مقام الإحساس والضمان بأن يدخلوا المسجد فيستمعوا إليه يستبق الخيرات بالوصية بالأمهات والأخوات وذوي القرابات. وقد أثبتت الظعينة بحسن رأيها وضمانها جدارتهن بالخيرات، وبورك للمجتمع كله بالنجاة من ثارات الجاهلية بقوله: "لا تجني أم على ولد" وبورك لهم بأنهم أكلوا وشبعوا ثم اكتالوا واستوفوا.

٣- ومكارم طئ تصل محاسن الجاهلية بالإسلام وتظفر زعيم طئ بنبوءات تثبت من الفور، وما تزال تثبت على مدار الزان! خمسة عشر رجلا دخلوا المسجد فدنوا من رسول الله فعرض عليهم الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم وأجازهم بخمس أواق فضة لكل رجل إلا زيد الخيل أعاطه اثنتى عشرة أوقفية ونشا (نصفا).

وقال فيه: "ما ذكر لي رجل من العرب إلا رأيته دون ما ذكر لي إلا ما كان من زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه"، وسماه زيد الخير وأعطاه أرضا في بلاده. سأل رسول الله عن علامة الله فيمن يريد، وعلامته فيمن لا يريد: فأجابه عليه السلام: (كيف أصبحت) قال: أصبحت أحب الخير وأهله، وأعمل به فإن عملت به أثبت بثوابه وإن فاتني منه شئ حزنت عليه، قال ﷺ "تلك علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد".

وكانت سرية علي قد أصابت بني طئ سنة تسع وسبت سفانة بنت حاتم مضرب المثل في الجود، وهرب أخوها عدي بخيله إلى الشام. وجعلت سفانة في حظيرة للسبايا بباب المسجد فمر بها رسول الله فقامت إليه، وهي كما وصفها أمير المؤمنين علي "جارية جماء حمراء لمساء ذلفاء

عيطاء[٩٤] شماء الأنف معتدلة القامة والهامة.. فلما رأيتها أعجبت بها، وقلت لأطلبن إلى رسول الله أن يجعلها في فيئي، فلما تكلمت أنسيت جمالها لما سمعت من فصاحتها".

قالت: يا محمد إن رأيت أن تخلي عنا ولا تشمت بنا أحياء العرب فإني ابنة سيد قومي. وإن أبي كان: يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقري الضيف ويطعم الطعام ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط.

أنا ابنة حاتم طئ.

قال: "ياجارية هذه صفة المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه. خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق. والله يحب مكارم الأخلاق".

فأقامت حتى قدم وفد من جيران طئ لها فيهم ثقة، فكساها رسول الله وحملها على بعير وأعطاها نفقة، فخرجت مع بعضهم حتى قدمت الشام.

قال عدي بن حاتم فإني لقاعد في أهلي إذ نظرت إلى ظعينة.. فلما وقفت علي انسلخت تقول: القاطع الظالم احتملت أهلك وتركت بقية والدك، عورتك! قلت أي أخية لا تقولي إلا خيرا.. ثم نزلت فأقامت عندي فقلت لها ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعا فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكا فلن تذل في عز اليمن وأنت أنت، وقد أتاه فلان وأصاب منه وأتاه فلان وأصاب منه، قلت: والله إن هذا للرأي.

فخرجت حتى أقدم على رسول الله المدينة، فدخلت عليه وهو في مسجده فعرفت أنه ليس ملك كسرى ولا قيصر، فسلمت عليه فقال: "من الرجل" فقلت: عدي بن حاتم، فقام ﷺ فانطلق بي إلى بيته.. حتى إذا دخل بيته تناول وسادة محشوة ليفا فقدمها إلي فقال: "اجلس على هذه" قلت: يا رسول الله بل أنت. قال: "فاجلس عليها" فجلست وجلس بالأرض فقال:

"يا عدي[٩٥]. أخبرك أن لا إله إلا الله،فهل من إله إلا الله؟ وأخبرك أن الله تعالى أكبر، فهل من شئ أكبر من الله عز وجل؟" ثم قال: "يا عدي أسلم تسلم"، فقلت: إني على دين.(النصرانية)

---

(٩٤) جماء لا قرن لها (ضفيرة) حمراء بيضاء. لعساء في لونها سواد مشرب بحمرة. ذلفاء صغيرة الأنف – مستوية أرنبة الأنف – عيطاء طويلة العنق في اعتدال.

وفي حديث ابن إسحق أن النبي كان وراءه رجل يشير إليها أن قومي فكلميه ولما سألت عنه قيل لها إنه علي بن أبي طالب.

فقال: "أنا أعلم منك بدينك"، فقلت: أنت أعلم مني بديني؟ قال: (نعم) يقولها ثلاث مرات (ألست ركوسيا)" فقلت بلى قال: "ألست ترأس قومك" قلت بلى قال (أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع) [٩٦] قلت بلى والله. وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل. قال:

"فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك". ثم قال:

"يا عدي لعلك إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين أن رأيت خصاصة من عندنا. فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت ولا تخاف". وفي رواية: قال "هل رأيت الحيرة".

قلت لم أرها وقد علمت مكانها قال: "فإن الظعينة سترحل من الحيرة تطوف بالبيت في غير جوار لا تخاف أحدا إلا الله عز وجل، والذئب على غنمها.. فلعلك إنما يمنعك من دخول فيه أن ترى الملك والسلطان في غيرهم، والله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض باب قد فتحت عليهم".

وفي رواية: "لتفتحن عليهم كنوز كسرى بن هرمز" قلت: كنوز كسرى ابن هرمز؟

قال: "كنوز كسرى بن هرمز".

قال عدي ﷺ لسامعيه فأسلمت فرأيت وجه رسول الله قد استبشر.

وقد رأيت الظعينة ترحل من الكوفة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله.

وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز. ولئن طالت بكم حياة سترون ما قال أبو القاسم (رسول الله ﷺ).

رأى عدي تحقق هاتين النبوءتين في حياته، وشارك في تحقيقهما بجهاده. ورأى تحقيق النبوءة الخاصة بخريم بن أوس الطائي وأخت ملك الحيرة وبتطبيق شرائع الإسلام ورأى نبوءة أن يفيض المال.

---

(٩٥) أسلم عدي بن حاتم في شعبان سنة تسع وشهد مع علي بن أبي طالب حروبه ومات بالكوفة سنة ٦٨هـ ابن مائة وعشرين عاما وكان له في كل مقام موقف مجيد أعده له احتفال الرسول به.

(٩٦) له ربع الغنائم.

ومن خلال ما رأى من رسول الله كان تعلقه بعلي بن أبي طالب صاحب رسول الله وابن عمه وصهره وبطل حروبه.

ولئن كانت النبوءات عن كسرى والجزيرة العربية والغنى والأمان في العرب قد تحققت، وشارك عدي في تحقيقها، فإن نبوءته عليه السلام عن الشام قد تكررت وتحققت مثقل نبوءة فارس عندما وفد إليه من بني عذرة صفر سنة تسع اثنا عشر رجلا فعلمهم الإسلام وقالوا: إن متجرنا بالشام وبه هرقل فهل أوحي إليك في أمره بشئ؟ فقال (أبشروا فإن الشام ستفتح عليكم ويهرب هرقل إلى "ممتنع بلاده").

فهذه نبوءة في صفر سنة تسع، أيدها بعد أشهر عند رجوعه من تبوك، بأن أعطى الداريين قريتين من قرى الشام عندما ينهزم عنها هرقل إلى "ممتنع بلاده" وهذه النبوءات التي سجلها سامعوها بالمشاركة فيها في عصرها، أمثال على ثقة النبي في عهد الله له {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا}.
أما أبو ثعلبة الخشني وهو أسبق في الإسلام وممن بايعوا تحت الشجرة فقد أقسم لرسول الله أن أرض الروم ستفتح عليه وطلب إليه كتابا بأرض له منها فكتبه(٩٧).

أمر عليه الصلاة والسلام على اليمن علي بن أبي طالب وخالد بن سعيد بن العاص فقصد إليهما عمرو بن معديكرب في جمع من قومه، وكان من أبطال العرب وشعرائهم المعدودين، فلما دنا من مكانهما قال: دعوني حتى آتي هؤلاء القوم فإني لم أسم لأحد قط إلا هابني.. فلما دنا منهما صاح ليروعها: أنا أبو ثور. أنا عمرو بن معديكرب! لكنه ارتاع إذ سمعهما يقول كل منها لصاحبه: خلني وإياه! ويفدي كل منهما الآخر بأبيه وأمه ليتركه له!! فقال عمرو لنفسه: العرب تفزع مني وأرسى نفسي لهؤلاء جزرة!!

وولى ثم ركب إلى رسول الله بالمدينة وأسلم.

---

(٩٧) والماوردي يروي استبشار المسلمين بفتح بلاد الروم بما طلبه أبو ثعلبة (وهو ممن بايعوا تحت الشجرة) فيقول في "الأحكام السلطانية" عن طلب تميم الداري: (وقد سأل تميم الداري رسول الله ﷺ أن يعطيه عيون البلد الذي كان منه بالشام ففعل.

وسأله أبو ثعلبة الخشني أن يعطيه أرضا كانت بيدالروم فأعجبه ذلك. وقال (ألا تسمعون ماي قول؟) فقال: والذي بعثك بالحق لتفتحن عليك – فكتب له بذلك كتابا).

ومن الوفود قيس بن عاصم المنقري، قال عليه السلام إذ رآه: "هذا سيد أهل الوبر" وجعل يسمع له ويسمعه. ومما قال له: "فكيف تصنع في المنيحة" قال: إني لأمنح كل سنة مائة قال: "فما بالك أحب إليك أم مال مواليك؟" قال: "لا بل مالي" قال ﷺ: "إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو أعطيت وأمضيت وسائره لمواليك".

ولما قال له إنه وأد في الجاهلية اثنتى عشرة بنتا أو ثلاثة عشرة قال ﷺ: (فأعتق عن كل واحدة منهن نسمة).

وقيس في الإسلام مضرب المثل كما كان في الجاهلية. قيل للأحنف بن قيس بن معاوية ممن تعلمت الحلم فقال: من قيس بن عاصم. رأيته يوما محتبيا بحمائل سيفه يحدث قومه، إذ أتى برجل مكتوف وآخر مقتول وقيل: هذا ابن أخيك قتل ابنك. فما حل حبوته ولا قطع كلامه بل قال يا بن أخي بئس ما فعلت. أثمت بربك، وقطعت رحمك وقتلت ابن عمك، ورميت نفسك بسهمك وقللت عددك. ثم قال لابن له حاضر: قم يا بني إلى ابن عمكم فحل كتافه ووار أخاك وسق إلى أمك مائة من الإبل دية ابنها.

obeikandl.com

وعمرو بن معديكرب وحاتم الطائي والأحنف بن قيس الذي أسلفنا ذكرهم نماذج لنهايات فضائل ثلاث. يقول فيهم أبو تمام بعد أكثر من مائتي عام، فيشبه بهم الخليفة المعتصم في مجلس المعتصم:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

* * *

ووفد عشرة من بني محارب في حجة الوداع سنة عشر فأسلموا وقالوا نحن على من وراءنا.

ولم يكن أغلظ أو أفظ من بني محارب على رسول الله منذ كان يعرض نفسه على القبائل يدعوها للإسلام بمكة. وكان في وفدهم رجل عرفه رسول الله فأمده النظر. فلما رآه الرجل يديم النظر إليه قال:

كأنك يا رسول الله توهمني!

قال: "لقد رأيتك".

قال الرجل أي والله لقد رأيتني وكلمتني وكلمتك بأقبح الكلام ورددت عليك بأقبح الرد بعكاظ، وأنت تطوف على الناس.

قال رسول الله: "نعم".

قال الرجل: فأحمد الله الذي أبقاني حتى صدقت بك،ولقد مات أولئك النفر الذين كانوا معي على دينهم.

قال "إن القلوب بيد الله عز وجل".

قال الرجل: يا رسول الله استغفر لي من مراجعتي إياك.

قال: "إن الإسلام يجب ما قبله"، وأجازهم كما يجيز الوفود وانصرفوا.

وجاءه رعية السحيمي مسلما – وكان رسول الله قد كتب إليه كتابا فرقع الدلو به – فقبل إسلامه ورد عليه ابنا له كان المسلمون قد سبوه. وحدث بلال النبي أنه لم ير الولد أو الوالد استعير أحد منهما للآخر وهما يجتمعان!

قال ﷺ (هذا جفاء الأعراب).

ووفدت كندة يقدمها الأشعث بن قيس في ثمانين راكبا من اليمن فدخلوا على رسول الله المسجد وعليهم الحبرات مكثفة بالحرير فقال (أولم تسلموا) قالوا بلى قال: "ما هذا الحرير في أعناقكم" فشقوه ونزعوه وألقوه. ثم قال الأشعث نحن بنو آكل المرار وأنت يا رسول الله ابن آكل المرار فضحك ثم قال له: "ناسب بهذا النسب ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب والعباس بن عبد المطلب"(فلقد كانا تاجرين يسيران بتجاراتهما في العرب يقولان نحن بنو آكل المرار يتعززان بذلك لأن بني آكل المرار من كندة كانوا ملوكا). ثم قال "بل نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا" أي (لا نترك نسب آبائنا إلى نسب أمهاتنا.وللنبي جدة من كندة وهي أم كلاب بن مرة).

وجاءه أبو زرين بن لقيط بن عقيل العامري ونهيك بن عاصم يسألانه ما عندك من علم الغيب؟ فضحك وقال:

"ضن ربك عز وجل بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله.. علم متى منية أحدكم ولا تعلمونه. وعلم مافي غد وما أنت طاعم غدا ولا تعلمه. وعلم المني حين يكون في الرحم قد علمه ولا تعلمونه. وعلم الغيث يشرف عليكم آزلين مسنتين) (في شدة وجدب).. قال وعلم يوم الساعة".

ووفد بنو هلال بن عامر وطلب قبيصة بن المخارق أن يحمل الرسول عنه حمالة (كفالة)، فاستأخره حتى تأتيه الصدقات وقال له: "إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة حتى يصيب قواما من عيش، ورجل أصابته فاقة يشهد ثلاثة من ذوي الحاجة من قومه لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة.. فما سواهن يا قبيصة سحت يأكل صاحبه سحتا".

أحبار نجران:

ووفد أحبار نجران وكان رسول الله قد كتب إليهم ألا يعبدوا إلا الله أو يدفعوا الجزية وإلا فالحرب، فاجتمع منهم ممثلو ثلاث وسبعين قرية فيها مائة ألف مقاتل. وكانت الروم ترعى بعضهم وتبني الكنائس لهم. فأوفدوا ستين راكبا دخلوا على النبي لابسين حللا لهم يجرونها متختمين بالذهب. فسلموا عليه فلم يرد السلام. وتكلموا فلم يعقب، فانطلقوا إلى عثمان وعبد الرحمن وكانوا يعرفونهما، فسألوهما أنبقى أم نعود إلى بلادنا فذهبا إلى علي يسألانه قال علي: أرى أن يضعوا

حللهم وخواتيمهم ويلبسوا ثيابهم التي جاءوا بها على رواحلهم ويرجعوا إلى رسول الله. ففعلوا ورجعوا وسلموا فرد السلام ثم قال: "والذي نفسي بيده لقد أتوني المرة الأولى وإن إبليس لمعهم".

قال المتحدث باسمهم: قد أسلمنا.

قال ﷺ "كذبتما، يمنعكما من الإسلام ثلاث فيكما: عبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير، وزعمكما أن لله ولدا"، ثم سألهم وسألوه، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا ما تقول في عيسى بن مريم، فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى يسرنا إن كنت نبيا أن نعلم قولك فيه قال: "ما عندي فيه شئ يومي هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله في عيسى".

فأنزل الله تعالى {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم} ١٧ المائدة وأنزل {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، الحق من ربك فلا تكن من الممترين، فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين، إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم، فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين} آل عمران ٥٩ – ٦٣.

فلما نزلت هذه الآيات دعاهم إلى المباهلة فقالوا أخرنا ثلاثة أيام.

وخلا بعضهم إلى بعض. قال بعض والله لقد عرفتم أنه نبي مرسل ولئن لاعنتموه ليخسفن بأحد الفريقين. إنه للاستئصال لكم وما لاعن قوم قط نبيا فبقى كبيرهم ولا ثبت صغيرهم. رأيي أن أحكمه فإني أرى رجلا لا يحكم شططا أبدا.

وقال بعض فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم.

فلما انقضت المدة أقبل رسول الله مشتملا على الحسن والحسين في خميلة، وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة، وقال (إن أنا دعوت فأمنوا أنتم).

قال أهل نجران: إنا قد رأينا خيرا من ملاعنتك قال: "ما هو؟" قالوا حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح. فما حكمت فينا فهو جائز.

قال رسول الله: "إن كان العذاب لقد نزل على أهل نجران أن لو فعلوا لاستؤصلوا من الأرض". وكتب لهم كتابا بما لهم وما عليهم ورجع الوفد فأسلم بعض وبقى على النصرانية بعض.

* * *

وفي السنة العاشرة قدم وفد بني الحارث بن كعب مع خالد بن الوليد إذ بعث إليه رسول الله وهو باليمن ليقدم معهم بعد أن أسلموا وكانوا قبائل عدة.

سألهم رسول الله (بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية قالوا لم نكن نغلب أحدا.

قال: "بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم".

قالوا: كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحدا بظلم قال: "صدقتم".

ثم رجعوا فلم يمكثوا إلا أربعة أشهر وتوفي رسول الله ﷺ.

وجاءت وفود بني حنيفة في آخر سنة عشر وأجاز الوفود وفيها مسيلمة فلما رجعوا إلى اليمامة (نجد) ارتد مسيلمة وسجع سجع الكهنة وادعى أنه يوحى إليه وكتب إلى رسول الله يقول إني قد أشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأمر. فكتب إليه (من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى. أما بعد.

فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين).

وستكون معركة اليمامة نكالا في الدنيا والآخرة لمسليمة، وملحمة لخالد بن الوليد، ومكرمة لأبي بكر.

وكان آخر من قدم من كبرى الوفود على رسول الله وفد النخع في المحرم سنة ١١ في مائتي رجل فنزلوا دار رملة بنت الحارث.

قال ابن مسعود: سمعت رسول الله يثني على النخع حتى تمنيت أني رجل منهم. وابن مسعود حاجب رسول الله.

والتاريخ يشهد لعبد الله أنه علمهم إذ بعثه عمر إلى العراق معلما ووزيرا. وآل علمه إلى علقمة النخعي وسائر النخعيين ومنهم الأسود ثم إبراهيم[٩٨] شيخ مدرسة الكوفة التي نجب فيها أبو حنيفة.

---

(٩٨) قال عبد الله بن مسعود (لو سلك الناس واديا وشعبا وسلك عمر واديا وشعبا لسلكت وادي عمر وشعبه) وقال (ما أقرأ شيئا أو أعلمه إلا وعلقمة يقرؤه أو يعلمه).

obeikandl.com

obeikandl.com

أما الشعبي فيقول عن إبراهيم النخعي [ما ترك أحدا أعلم بسنة منه أو أفقه منه. قيل له: ولا الحسن البصري؟ ولا ابن سيرين؟ قال: ولا الحسن البصري ولا ابن سيرين ولا البصرة ولا الكوفة ولا الشام ولا الحجاز].

وتتلمذ حماد بن أبي سليمان على إبراهيم ونقل فقهه إلى تلميذه أبي حنيفة.

الفصل الثاني

الرجل

"أدبني ربي فأحسن تأديبي" حديث شريف

"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" حديث شريف

حمى الله الرسالة والرسول من أن يقصر عن إدراكهما ضعف البشر فوصفه جل شأنه في القرآن بما هو أهل له، وأقسم بعظائم الأشياء لأجله، وأقسم بالقرآن ذاته أنه على صراط مستقيم، كما أقسم أنه ما ينطق عن الهوى، بل أقسم به على حيرة أعدائه {لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون}.

ولما أراد إنزال السكينة على قلبه أقسم بالضحى والليل إذا سجى ما ودعه وما قلى وللآخرة خير له من الأولى. وهو تعالى وملائكته يصلون عليه ويأمرنا بالصلاة والتسليم عليه فنحن نصلي عليه على مدار الليل والنهار وهو سبحانه يقول له {وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم}.

فلا عجب إذا طلب إلى عمرو بن العاص أن يصفه فيقسم: والله ما كنت أملأ عيني منه إجلالا له ولو شئت أن أصفه ما أطقت. وعمرو هو المثل الذي ضربه عمر على قدرة البيان عندما رأى رجلا لا يبين فقال: آمنت بالله،خالق هذا وعمرو بن العاص واحد! والأحنف بن قيس يقول في فصاحة عمرو: ما رأيت رجلا تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ولا عرف حدوده مثل عمرو بن العاص.

oberkanal.com

ولما وصفه ﷺ أمير البلاغة علي بن أبي طالب أوجز.

وتهيب ابن الفارض فقال:

إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما يصنع الورى

وتناهى البوصيري في الإجمال حيث قال:

وجملة القول فيه أنه بشر وأنه خير أهل الأرض كلهم

وتلك منزلة تتقصف دونها الأقلام وترجف الصفح.

فنحن هنا نرنو إلى "الرجل" ولا ندنو من النبي.

وابن عباس يقول: لم يقم مع شمس قط إلا غلب على ضوء الشمس. ولا مع سراج قط إلا غلب على ضوء السراج.

والله تعالى جعله في القرآن (سراجا منيرا).

فما خصته به السماء من الوحي أو التشريع أو أحكام القضاء أو أعمال الإمام لزام علينا إجلالها عن التصدي لها. أما أخلاقه فيغنينا في الكلام عنها قسم الله إنه لعلى خلق عظيم. وهذا القسم العظيم مع التوكيد لا يقبل المزيد. فإن ساغ لنا أن نذكر الفعل لنستخرج العبرة كأن يروي ابن مسعود أنه رآه يصلي منفردا وصلى وراءه، فقرأ ﷺ السور الطوال سورة بعد سورة في ركعة بعد ركعة وهو بين يدي الله بكله، وأرهق ابن مسعود، وأخبر القوم بقوله: "هممت بأمر سوء" قالوا ماذا هممت؟ قال "هممت أن أجلس وأدعه".

فهذا يقربنا من معنى البوصيري في قوله:

إنما مثلوا صفاتك للنا س كما مثل النجوم الماء

يقول ﷺ "أدبني ربي فأحسن تأديبي"، فلا غرو أن تتلاقى في أدبه نهايات الفضائل:

ففي حين نسمع من علي: (إنا كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله فما يكون منا أقرب إلى العدو منه. ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من

obeikandi.com

أشد الناس يومئذ بأسا)، أو من البراء بن عازب (كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله وإن الشجاع الذي يحاذى به) ونرى من شجاعته في الغزوات شجاعات – شجاعة محارب يطاعن بيده أو تنزل به الطعنات، وشجاعة قائد يحرك القوات. وشجاعة العفو عن العدو إذ يدعو للذي يدميه أو يقتل صحبه، حين يطلب الآخرون منه أن يدعو عليه، مع ذلك نشهد من صفاته ما حدث به أبو سعيد الخدري: (كان عليه السلام أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه) أي لم يعلنه بلسانه. فاجتمع أكثر من حياء العذراء مع الشجاعات الخارقة وتبعات الإمامة العامة والقيادة العسكرية.

وكل ذلك دلائل على أن الله أراد تمييزه ليكون جامعا لما تنبئ به مرآته عن مخبره، مع الحفاظ على سلامة سره، وبلوغ الغاية القصوى في المرحمة:

يخفف الصلاة، إذا سمع طفلا يبكي، فهو عليم بحاجته لأمه وقد تكون بين المصلين في الجماعة.

وتتجلى شدته في تطبيق شريعته إذ يسمع عن ظلم مخدوم لخادم:

شكا إليه عبد جدع أنفه وأذنه سيده زنباع إذ شهده يقبل جارية له. فأرسل إلى زنباع فجاءه فقال له "لا تحملوهم ما لا يطيقون وأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون. وما كرهتم فبيعوا. وما رضيتم فأمسكوا. ولا تعذبوا خلق الله" ثم قال: "من مثل به أو أحرق بالنار فهو حر. وهو مولى لله ورسوله" ثم أعتقه رسول الله.

قال الرجل: يا رسول الله أوص بي: قال: "أوصي بك كل مسلم".

ومن حديثه ﷺ "من ضرب غلاما حدا لم يأته أو لطمه فإن كفارته أن يعتقه".

وتقول أم المؤمنين عائشة: (ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادما له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله. ولا نيل منه فانتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله،فإذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شئ حتى ينتقم لله).

ولقد كان أجمع الناس لدواعي الترفع لكنه كان قدوة الناس في التواضع: يرقع الثوب ويخصف النعل ويركب الحمار ويعلف الناضح ويجيب دعوة المملوك ويجلس بالأرض ويأكل على الأرض ويدعو الله من غير قهر ولا زجر، لطيف البشرة رقيق الظاهر.

لا يدع أحدا يقف بين يديه بل يجلسه، ويؤتى بقدح فيه شراب فيناوله أبا عبيدة قائلا: "أنت أولى"ويتردد أبو عبيدة فيقول له: "اشرب فإن البركة مع أكابرنا من لم يرحم صغيرنا ويبجل كبيرنا فليس منا".

ولما أتي بقدح فيه لبن وعسل قال: "شربتين في شربة. أما أني لا أزعم أنه حرام. أكره أن يسألني ربي عن فضول الدنيا".

وإذا دخل رمضان أعطى كل سائل وأطلق كل أسير.

قالت له عائشة: لو أكلت وأنت متكئ؟ فأصغى إلى الأرض حتى كاد يمسها وقال: (بل آكل كما يأكل العبد...).

يقول في أول الطعام: (يا واسع المغفرة) ويعلن (أحب الطعام إلى ما كثرت عليه الأيدي) ولما قدم إليه رقاق من خبز سأل: (هل من أدم) قالوا: لا شئ غير الخل. فقال: (نعم الأدم الخل).

* * *

كان أبا لصحبه: يمازحهم ويلاعب صبيانهم ليسع الجميع بسطه وإيناسه. ويقبل الهدية ويكافئ عليها ويعود المرضى في أقصى المدينة. ويقبل اعتذار المعتذر. ما التقم أحد أذنه يحادثه فنحى رأسه حتى يكون الرجل هو الذي نحى رأسه. وما أخذ رجل بيده فأرسل يده حتى يرسلها الرجل. يبدأ بالسلام وبالمصافحة ولم ير قط مادا رجليه حتى يضيق على أحد. يكني أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم. ويشغف حبه العافين والعاتبين عليهم معا:

يجيئه أعرابي يطلب شيئا فيعطيه. فيقول الأعرابي: ما أحسنت ولا أجملت. ويهم الحضور بالرجل فيشير إليهم أن يكفوا. ثم يدخل الدار فيرسل إليه ويزيده ثم يسأله: "أأحسنت" فيقول نعم فجزاك الله خيرا.

فيقول عليه السلام له: "إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي منك شئ فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت حتى يذهب ما في صدورهم عليك".

فلما كان الغد أو العشي جاء صحبه فقال إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى. والتفت للرجل فقال: "أكذلك"؟ قال الرجل نعم فجزاك الله خيرا. فقال عليه السلام: "مثلي ومثلك مثل رجل شردت عليه ناقته وأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا فناداهم صاحبها: خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم. فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى

جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها. وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار".

وجذبه أعرابي جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه. ثم قال: يا محمد احمل لي على بعيرين من مال الله عندك. فإنك لا تحمل لي من مالك ولا مال أبيك.

فسكت ثم قال "المال مال الله وأنا عبده. ويقاد منك يا أعرابي ما قلت". قال الأعرابي: لا. قال لم؟ قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة.

فضحك عليه السلام ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر. فهو هنا قد أعطى فأغنى. وعفا. وأشرق وجهه الضحاك. وأحق الناس برحمة "المعلم الأول" السائل الجاهل.

ولقد كان ﷺ يقول: "إن الله أمرني بمداراة الناس كما أمرني بالفرائض".

وليس أنفذ إلى الأفئدة من النصفة والتواضع يراهما الجميع بمناسبات تضاعف وصف العظمة:

ففي يوم بدر صف الناس للحرب فخرج من الصف سواد بن غزية فدفعه رسول الله بالقضيب في بطنه ليعود إلى الصف قائلا: "استو يا سواد" قال سواد: أوجعتني يا رسول الله.

فكشف رسول الله عن بطنه وقال له (استقد يا سواد) فاعتنقه سواد وقال: يا رسول الله حضر من أمر الله ما ترى وخشيت القتل فأردت أن يكون آخر عهدي بك أن يمس جلدي جلدك وأن أعتنقك.

وصير هذه المسيس سوادا واحدا من أهل بدر الذين غفر الله لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر، ثم جعله البطل الذي أسر إخوة أبي جهل الثلاثة، ولما فتحت خيبر أمره عليها.

وفي أحد والرسول في عريشه والجراح تدمي جسده والأعداء يتناوبون محاولات قتله أدنى من نفسه زياد بن السكن حينما أصيبت مقاتله وهو يدافع عن العريش، ثم وسده قدمه الشريف فصعدت روح زيادة من جسده وهو لصيق بجسد رسول الله ﷺ فما أعظم الرحمة إذ تضيف إلى شجاعات القائد المقاتل وثباته، الوفاء والنجدة والرقة للرفقة مجتمعة، لتتراءى للأمة أسلوبا في القيادة في أخطر المواقف على حياة القائد.

وفي يوم حنين كانت ساعة ذعر فيها المحاربون ورسول الله يوغل في صفوف العدو فزحم راكب رسول الله على ركوبته فأصاب رجله حتى قال له: "أوجعتني". فلما تم النصر دعا الرجل في الغد

فجاء ينتظر ما ينتظر.. فإذا برسول الله يعطيه ثمانين نعجة! ولعله أعطاه لقاء ما أحسه الرجل من تأنيب نفسه لنفسه منذ أوجع رسول الله.

فكيف لا يؤثرونه على ما جبلت النفوس على إيثاره:

لقد عادت هند بنت عمرو بن حرام من الميدان يوم أحد فسألتها أم المؤمنين عائشة عن الأخبار فقالت: أما رسول الله فصالح. وكل مصيبة بعده جلل (هينة) واتخذ الله من المؤمنين شهدا: ابني وزوجي وأخي.

أما زوجها فعمرو بن الجموح منعه بنوه الخروج إلى بدر لأنه كان أعرج وقال له النبي يوم أحد: "لا جهاد عليك"، فقال إني أريد أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة. وأما ابنها فخلاد بن عمرو بن الجموح وكان واحدا من بين أربعة يحاربون مع أبيهم. وأما أخوها فعبد الله بن عمرو بن حرام أحد النقباء. وكان سيد بني سلمة ولم يأذن رسول الله لأحد لم يشترك في أحد ليذهب معه إلى حمراء الأسد إلا لابنه جابر، ليكون له حظ من فخار ذلك الانتصار.

* * *

ورسول الله في قومه كأحدهم يرتفع بمستوى كل مسلم في خاصة نفسه وفي قومه فيعلمه ما يجمل به من احترام النعمة وأناقة التطعم. يأخذ بيد عكراش ليطعمه في بيت أم المؤمنين أم سلمة فأتيا بجفنة كبيرة وضعت بين يديه فيها تمر وشرعا يأكلان.. فقبض بيده اليسرى على يمنى عكراش وقال: "يا عكراش كل من موضع واحد فإنه طعام واحد" ثم أوتيا طبقا فيه ألوان من التمر والرطب فجعل عكراش يأكل من موضع واحد. فأجال الرسول يده في الطبق وقال: "يا عكراش كل من حيث شئت فإنه غير لون واحد" أي هنا تمر ورطب فكل ما تشاء.

وكان يغسل يديه قبل الطعام. وينهي عن الأكل من ذروة القصعة حتى تصل إليها الأيدي عند الفراغ مما حولها ويقول: "كل مما يليك واذكر اسم الله وكل بيمينك" وينهي عن أن يقرن الرجل بين تمرتين فيأكل اثنتين اثنتين إلا أن يستأذن أصحابه. وينهى عن أن يقام عن الطعام حتى يرفع فلعل للرفاق به حاجة.

وهو يعلمهم القصد والأناقة: تجشأ أبو جحيفة، وكان يحبه، فقال له (كف عنا جشاءك أبا جحيفة فإن أكثرهم شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة) فما ملأ أبو جحيفة بطنه طعاما حتى مات. كان إذا تعشى لا يتغدى وإذا تغدى لا يتعشى.

ودخل ﷺ البيت فرأى كسرة ملقاة فأخذها وشمها ثم أكلها وقال: "يا عائشة أحسني جوار نعم الله. فإنها قل مان فرت من أهل بيت فكانت ترجع إليهم".

وكان يأكل الشعير غير منخول، فما كانت لديهم مناخل.

وقد يهدي إليه رجل أنثى وعل صادها من بادية الشام فيأكل منها ثم يثيبه بهدية تزين رأسه فيكسوه عمامة عدنية. ويسأله عن اسمه ويقول حازم (بن حرام الجذمي) فيجيبه: "لست بحازم ولكنك مطعم" وأي مجد وأي خلد للاسم الجديد والوصف الجليل: "مطعم" رسول الله.

وينحر سعد بن عبادة أربعين شاة لإطعام أهل المدينة والوفود القادمة ويبعث إلى الرسول بجفنة مملوءة مخا فيسأله (ما هذا) فيجيبه: أحببت أن أشبعك من المخ – فلقد كانوا يعرفون أنه وأهل بيتاه يجوعون إلا ما ندر.

ويتناهى الحديث إلى الخيزران زوج الخليفة المهدي وأم الهادي والرشيد فتقسم الأموال بعد أكثر من قرن ونصف قرن على أحفاد سعد بن عبادة وتقول: أكافئ ولد سعد عن فعله برسول الله.

تقول زوج أبي أيوب الأنصاري وقد استضافاه حتى بنى المسجد والدار: ما رأيته أمر أن يصنع له طعام ولا رأيته ذم طعاما قط.

يهدي إليه يهودي من وادي القرى هريسا فيأكل منه ويسمي باسم الله على جبن من نصارى تبوك فيأكل منه.. أو من جبن تدخل فيه الأنافح[٩٩] وكان يحب الدباء (القرع) والثريد.. ويأكل الفلفل والزيت، واللبن والتمر ويسميهما الأطيبين. وقرب إليه سعد بن معاذ شيئا من سمسم وشيئا من تمر فأكل ودعا لسعد.

وأحب الشاة إليه الذراع.

* * *

وكان إذا استجد ثوبا لبسه يوم الجمعة وإذا جاءه وفد لبس أحسن ثيابه وأمر أبا بكر وعمر أن يصنعا مثله. رأى على عمر قميصا أبيض غسيلا فقال "ثوبك هذا غسيل أم جديد"؟ قال: لا بل

(٩٩) الأنافح: المنفخة أي كرش الجمل أو الجدي.

غسيل يا رسول الله قال: "البس جديدا وعش حميدا ومت شهيدا يرزقك الله تعالى قر عين في الدنيا والآخرة".

وكان يعتم ويدير كور العمامة على رأسه يقرنها من ورائه ويرسل لها ذؤابة بين كتفيه. ويلبس عمامة سوداء في العيدين ويرخيها خلفه. ودخل مكة وعليه عمامة سوداء. وعمامته وسط بين الكبيرة والصغيرة قدر ما تقي رأسه من البرد والحر. وفي السفر يلبس قلانس ذات آذان، وربما وضعها بين يديه إذا صلى. ولديه قلنسوة[١٠٠] بيضاء مصرية وقلنسوة لاصقة بالرأس أو قلنسوة حبرة (من قماش يمني) أو شامية.

(ولم تطل القلانس إلا بورودها على رؤوس الفرس في الدولة العباسية)، وكان عليه يوم بيعة الرضوان في الحديبية قميص من قطن وجبة ورداء وسيف، والنعمان بن مقرن قائم على رأسه والناس يبايعونه.

وقد يلبس جبة من صوف أوجبة من ديباج كسرواني أو جبة شامية ضيقة الكمين، أو قميصا فوق الكعبين من تحت إزاره أو جبة مزررة. وإذا كانت من حرير لم يلبسها. وقد يأتزر ببرد.

وفيما بين صلح الحديبية وفتح مكة أهداه حكيم بن حزام حلة اشتراها حكيم بثلاث مائة دينار فردها عليه وقال: "إني لا أقبل هدية مشرك" فباعها حكيم. وأمر رسول الله من يشتريها. ولعل ذلك ليتواصل المسلمون والمشركون بالتعامل بعد الهدنة.

وعلى الجملة لم يلتزم رسول الله شكلا معينا في لباسه: يلبس القميص والرداء والسروال والإزار والجبة والعمامة على القلنسوة وقد يعصب رأسه كما يتقنع بلف ردائه حول رأسه فوق العمامة.

كان أحب لباسه إليه ما يستر البدن كالقميص لأنه يخاط ولا يسقط وإنما يخلع. ولذلك آثر السراويل.

رأى رجلا عليه ثوب غير نظيف فقال لرجل آخر: "أما كان هذا يجد ما يغسل ثوبه" وقال ذات يوم لرجل قادر: "إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده".

يقول: "خير ثيابكم البياض" ويكره الأحمر والمعصفر. ولا يحب الفاقع، ويحب الطيب، ولا يرد هدية منه، ويرى الناس المسك في رأسه. تقول عائشة (خمس لم يكن رسول الله ﷺ يدعهن في

---

(١٠٠) ما يلبس في الرأس.

سفر ولا حضر: المرآة والمكحلة والمشط والدهن والسواك) فكانت تزوده في سفره بها وبمقص. فإذا أخذ مضجعه من الليل استاك وتوضأ وامتشط.

أهدى إليه المقوقس قدحا من قوارير وآخر من فخار وربعة (إناء كالجونة) انكسرت فكان يجعل فيها المرآة التي أهداها له المشط من العاج. وكان يكثر من دهن رأسه وتسريح لحيته ويترجل (يسرح شعره) كل يومين مرة. ويحفي شاربه. يأخذه من أطرافه. ويعفي اللحية[١٠١]، ويأخذ من أطرافها بالسوية ويأخذ أظفاره يوم الجمعة.

وإذا نظر في المرآة شكر ودعا ليعلم الناس الشكر والدعاء (اللهم حسنت خلقي فحسن خلقي. وأوسع علي رزقي).

يقول: "من لبس ثوبا جديدا فقال الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في حياتي ثم عمد إلى الثوب الذي أخلق فتصدق به كان في حفظ الله وكنفه وفي ستر الله حيا وميتا" وينهى عن الزي الخاص بغير المسلم. ويلعن تخنث الرجال وترجل النساء قال: "لعن الله الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل"، وقال: "لعن الله الرجلة في النساء". ورأى رجلا يجر إزاره خيلاء فقال له: "ارفع إزارك فإنه أتقى وأنقى... أمالك في أسوة"، ويوصي صحبه بأن ينتعلوا: (فإن الرجل لا يزال راكبا ما انتعل).

ومن النظافة كان الوضوء مندوبا في حالات غير مفروض فيها، فهو عليه الصلاة والسلام يتوضأ وهو على وضوء. كما يغتسل للجمعة والجماعة وللعيدين وللحجامة ويتسوك في الليل والنهار وإن لم يأكل. ويتسوك وهو صائم. ويغسل رأسه وهو معتكف.

* * *

وهو رياضي الجسم جلد. صارع ركانة فغلبه. وهو الغازي في الليل والنهار ولأواء القيظ وجمد الشتاء والإصعاد في المرتفعات: يسابق عائشة وهي في الصبا فتسبقه ويسابقها إذ حملت اللحم فيسبقها وبينهما نيف وأربعون سنة ويقول (هذه بتلك).

كانت ناقته (العضباء) لا تسبق فجاء أعرابي على قعود فسبقها. وشق ذلك على المسلمين فقال ليذهب عنهم الحزن "حق على الله ألا يرتفع شئ إلا وضعه".

---

(١٠١) روى البخاري ومسلم قوله عليه الصلاة والسلام:

[خالفوا المشركين احفوا الشوارب وأوفروا اللحى] وللفقهاء في أمر اللحية أقوال ثلاثة. قول بتحريم حلقها وقول بالكراهة وقول بالإباحة.

ولقد سابق بين الخيل في أكثر من مناسبة وقال "لا سبق إلا في حافر أو نصل". ويجري ما ضمر من الخيل في ميدان خمسة أميال أو ستة أو سبعة وما لم يضمر في نحو ميل. ويقول: "رهان الخيل طلق"،راهن على فرس يقال لها سبحة فسبقت فبدت عليه البشاشة. وجزى المجلي ثلاث حلل والمصلي حلتين، وحلة من جاء ثالثا. وأعطى أبا أسيد الساعدي حلة حين سبق على (لزاز) فرس رسول الله. وفي سباق غيره أعطى كلا من المتسابقين عذقا من تمر.

وكان يعني بجياده ويسمي كلا منها اسما وطالما حث صحبه على تعلم الرمي والسباحة فكان منهم في جيشه كبار الرماة، وفي جيوش الخلفاء الراشدين سباحون عبروا إلى العدو وكانوا صناديد الفتوح.

رأى رجلا جاء على راحلته يضرب بعيره يمينا وشمالا فقال: "من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له. ومن كان..." فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأى الراوي وصحبه أن لا حق لأحد منهم في فضل.. وقد أخذ ﷺ بذلك نفسه. وطالما أردف خلفه. وكانت له في الركوب نوبة ولغيره نوبة.

وفي أواخر العمر جاءوه بسرير من حديد فكان عنده.

ولما ولي عمر بن الخطاب واغتنى الناس واقتنى بعض الأثاث والرياش كان عمر يرى الزوار والسرير وعصا وجفنة ووسادة حشوها ليف وقطيفة ويقول لهم: هذا ميراث من أكرمكم الله تعالى به.

روى وافد بني المنتفق (أتينا رسول الله فلم نصادفه في منزله وصادفنا عائشة فأوتينا بقناع فيه تمر وأمرت لنا بجزيرة فصنعت لنا ثم أكلنا فلم نلبث أن جاء ﷺ فقال (هل أكلتم شيئا؟ هل أمر لكم بشئ؟ قلنا نعم.. ولم يلبث الراعي أن دفع غنمه إلى المراح، فإذا شاة تبعر (بعد أن ولدت)، فقال للراعي: "ما ولدت" قال بهمة قال: "فاذبح مكانها شاة"، ثم قال لصاحب من الوفد: "لا تحسبن أن من أجلك ذبحناها. لنا غنم مائة لا نريد أن تزيد فإذا ولد الراعي بهمة ذبحنا مكانها شاة".

فكل زيادة فضل عن الحاجة وللناس على أولي الفضل حقوق.

* * *

تقول عائشة عن عبادته: "كان رسول الله يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه"، وتقول أم سلمة إذ تسأل عن صلاته (ما لكم وصلاته. كان يصلي ثم ينام قدر ما صلى ثم يصلي قدر ما ينام ثم ينام قدر ما صلى ثم يصبح)، فهو يقسم ليله مناصفة، قائما بين يدي الله نائما في عنايته ورحمته، يتنفل بعد منتصف الليل بثلاث عشرة ركعة وفي بعض صلاته يقرأ سورة البقرة وهي أطول سور القرآن (٢٨٦ آية). أو يقرأ أكثر.

كان يصلي حتى ترم قدماه فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: "أفلا أكون عبدا شكورا".

فإذا استيقظ قال: "الحمد لله الذي رد إلي روحي وأذن لي في ذكره" وإذا طعم قال: "الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين"، فإذا لبس جديدا قال: "الحمد لله الذي كساني هذا ورزقني به من غير حول ولا قوة" ويأمر الناس "اسألوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل. وأفضل العبادة انتظار الفرج".

فإذا اشتكى يقرأ المعوذتين وسورة الإخلاص وينفث على يديه ويمسح بهما وجهه. قالت أم المؤمنين عائشة: (فلما ثقل – تعني في المرض – كنت أنفث عليه بهن وأمسح بيد نفسه لبركتها)، يصوم حتى يقال لا يفطر ويفطر حتى يقال لا يصوم ثم صام يوما وأفطر يوما ثم صام الاثنين والخميس في أول الشهر والأربعاء في وسط الشهر والخميس في آخر الشهر وكان كثير الصوم في شعبان.

صام تسع رمضانات فكان إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر. فهو يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره وفي العشرة الأخيرة ما لا يجتهد في غيرها. وكان يطوي فراشه إذا اعتكف ويعتزل النساء ويغتسل بين الأذانين ويجعل العشاء سحورا.

وذكر الله عنده نبض الحياة يقول: "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت"، وأفضل الذكر قراءة القرآن.

يقول: "من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشرة أمثالها لا أقول (ألم) حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف". وربما أرشدنا هذا الحديث لندرك وصف قراءته للقرآن على لسان أم المؤمنين أم سلمة إذ سئلت وأجابت: {بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين}

فوصفت حرفا حرفا. فرسول الله يتلو ألفاظ الله فيظهرها للناس حرفا حرفا ليتذوقوا إعجاز الألفاظ بالتلاوة. وتلاوة القرآن تعبد.

يقول: "إن للقلوب صدأ كصدأ النحاس فاجلوها بالاستغفار" ويقول: "إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد" فقيل له ما جلاؤها؟ قال: "تلاوة القرآن وذكر الموت".

قال لعبد الله بن مسعود: "اقرأ علي القرآن" قال ابن مسعود: أقرأ عليك وعليك نزل! قال: "إني أحب أن أسمعه من غيري"، فقرأ عليه سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا} فقال: "حسبك الآن" والتفت إليه ابن مسعود فإذا عيناه تذرفان.

وأصابه الوجع يوما ولاحظ ذلك أصحابه فقال: "أما مع ما ترون فقد قرأت البارحة السبع الطوال".

* * *

والصدقة منجاة من البأس والنحس يقول: "من سره أن يدفع الله عنه نحس يومه فليفتتح يومه بصدقة".

قال علي: (ما سئل رسول الله شيئا قط فقال لا، وما رد سائل حاجة قط إلا بها أو بميسور من القول).

وهو دائم الحث على التواصل، دائم الذكر لو غاب غائب. يقول لصحبه: "إذا فقد الرجل واحدا من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه فإن كان غائبا دعا له، وإن كان حاضر البلدة زاره وإن كان مريضا عاده".

ويقول ليعلم الأمة التواصل والعمل والتحمل: "خمس لا أدعهن حتى الممات: الأكل على الحضيض مع العبيد وركوبي الحمار مؤكفا[١٠٢] وحلبى العنز بيدي ولبس الصوف والتسليم على الصبيان لتكون سنة من بعدي".

وهو مع أصحابه: إن أخذا بحديث ذكر الآخرة أخذ معهم وإن أخذوا في الدنيا أخذ معهم. وإذا رأى أحدهم مغموما داعبه ليسره ويفشي السلام بين الناس ومنهم الصغير. ويمر بالنساء فيلقي

(١٠٢) مشدودا عليه إكافه.

عليهن السلام. ويكني من ليس له كنية ويكني اللواتي يلدن، ومن ليس لهن أولاد،ويكني الصبيان فتهوى إليه أفئدة الجميع.

يقول أنس: (كان من أشد الناس لطفا والله ما كان يمتنع في الغداة الباردة من عبد ولا من أمة ولا من صبي أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه، وما سأله سائل قط إلا أصغى إليه أذنه).

ويروي ابن عباس: كان يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير، وكان بارزا لا يغلق دونه الأبواب أو يقف الحجاب. يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له حاجته.

قال له وفد بني عامر: أنت سيدنا فقال: "السيد الله" وقالوا وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا، فقال: "قولوا قولكم ولا يستجرمنكم الشيطان".

وقال أنس ما كان شخص أحب إلى أصحابه من رسول اله وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمونه من كراهيته لذلك.

وكان وهابة وعفوا. والعفو أعظم العطاء.

قال جابر: إن رسول الله جعل يقبض للناس يوم حنين من فضة في ثوب بلال فقال له رجل: يا نبي الله اعدل. قال ﷺ "ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل"؟

وقام عمر فقال: ألا أضرب عنقه فإنه منافق؟ قال: "معاذ الله أن يتحدث الناس أنني أقتل أصحابي".

ولما قيل له: ادع الله على المشركين أجاب: "إنما بعثت رحمة مهداة لم أبعث لعانا".

وما أصبره عند فراق الأحبة القاسم وعبد الله وإبراهيم ورقية وأم كلثوم وزينب وخديجة وأبي طالب، أو صناديد الغزوات. ذهب إلى منزل زيد إذ استشهد فبكت ابنته وبكى رسول الله وقال: "هذا شوق الحبيب إلى حبيبه".

ولما قتل حمزة جاءت أخته فتحاشاها علي والزبير وسرى هو عنها ولما رأى تمثيل المشركين بجسده قال: "لئن مكنني الله من قريش لأمثلن بسبعين منهم" ونهاه الله وقال الرسول "بل أصبر".

ومن الرحمة حدثه رجل عن وأد بنت له في الجاهلية وقولها له وهو يقذفها في بئر: أبتاه أبتاه.. فبكى لما سمع.

قالت عائشة إنه: (كان أيسر الناس وأكرم الناس وكان رجلا من رجالكم إلا أنه كان ضحاكا بساما).

وقالت (كان يعمل عمل البيت وكثرة ما يعمل الخياطة. وكان يستحب العفو والصلح ويرضي المتنازعين وقد يقول كل منهما حقي لصاحبي).

وجاءته فاطمة ببعض من خبز خبزته فقال: "أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام".

* * *

إن من أروع ما عرفنا من السيرة العطرة أننا لا نعرف موقفا واحدا أو تعبيرا واحدا استعمل فيه، في غير موضعه، امتيازه كرسول الله بين البشر، أو كإمام له أعظم سلطان، أو كرجل له القوة النفسية أو الجسمية التي أجمع عليها معاصروه. فلا ضغط ولا كبر ولا بأس، ولا عنف، بل ثمة الدعوة بالحكمة، أو الحكم بالعقل أو المصلحة أو النصيحة: يلقى الطغاة فيرفق بهم والضعفاء فيقويهم، أو المسكينة فيلقي عليها السكينة أو الرهبان فيؤلف أفئدتهم.

ولا نعرف حادثا خلا من جلال أو جمال.

قال أنس: (كان يقول لأحدنا: عند المعاتبة "ما له ترب يمينه". حتى عتاب غلامه يقع بضمير الغائب لا ضمير المخاطب! – وما أرق تهذيبه في قوله لوصيفة له أبطأت: "لولا القصاص لأوجعتك بهذا السواك". وليس على المؤدب لو أدب قصاص، ولا السواك يوجع، وإنما هو أداة طهارة ذات رقة. وكأنه أراد أن يجعل لها حقا في العفو عليه صلاة الله وسلامه. والوصيفة تراه يستحب سواكه فهو يستعمله كلما استيقظ في ليله أو نهاره ويصطحبه في أسفاره، فالتهديد به أناقة تعبير لا تراع به وصيفة.

ومن الإحسان في المساواة بين صحبه وبين نفسه يأمر – وكأنما يدعو أو يرجو – كان عقبة بن نافع يقود ناقته حتى وصلا إلى نقب (طريق صعب) فقال: "ألا تركب يا عقبة" وأجل عقبة أن يركب مركبه فعاد يقول له: "ألا تركب يا عقبة" وخشى عقبة أن يعصى الأمر. فركب هنيهة ثم نزل.

وأرسل أنسا في عمل فقعد أنس مع الصبيان فجاء رسول الله فجلس مع الصبيان.

فإذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال (فلان) يقول كذا وكذا بل ورى فقال: "ما بال أقوام يقولون كذا وكذا"؟ ولا يشافه أحدا بما يكرهه، فإذا لام عاتب وإذا عاتب ورى. والكل يفهم ما يريده. فالجنة أو النار في طاعته أو معصيته.

الاستسقاء:

كرمه الله يوم فزع المسلمون إليه في السنة السادسة للهجرة إذ قحطوا ويبس الشجر وهلكت المواشي فذهبوا إليه ليستسقي لهم ربه. فخرج والناس معه يمشون بالسكينة والوقار حتى إذا أتوا المصلى تقدم وصلى بهم ركعتين يجهر فيهما بالقراءة.

فلما قضى صلاته استقبل الناس بوجهه وقلب رداءه وجثا على ركبتيه وكبر تكبيرة قبل أن يستسقي ثم قال: "اللهم اسقنا وأغثنا.. عاجلا غير رائث.. تحيي به البلاد وتغيث العباد وتجعله بلاغا صالحا للحاضر. اللهم أنزل في أرضنا زينتها وأنزل عليها سكينتها، اللهم أنزل علينا من السماء ماء طهورا، تحيي به بلدة ميتا واسعة ومما خلقت أنعاما وأناسي كثيرا".

فما برحوا حتى أقبلت قطع رقيقة من السحاب فالتأم بعضها إلى بعض ثم أمطرت سبعة أيام بلياليهن فأتوه فقالوا: يا رسول الله قد غرقت الأرض واقتطعت السبل فادع الله أن يصرفها عنا. فضحك وهو على المنبر حتى بدت نواجذه لسرعة ملالة بني آدم، ثم رفع يديه فقال: "حوالينا لا علينا. اللهم على رءوس الظراب ومنابت الشجر والطيور والأودية وظهور الآكام" فتصدعت عن المدينة.

وأصبحت صلاة الاستسقاء سنة مؤكدة عند وقوع الحاجة.

درس واجب تعليمه للمسلمين:

سأل أمير المؤمنين الحسن بن علي خاله هند بن أبي هالة وقد تربى في حجر النبي عن حلية (صفة) رسول الله، وهو يشتهي أن يصف له منها شيئا يتعلق به. فقال هند بين ما قال:

(كان رسول الله فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع وأقصر من المشذب. عظيم الهامة رجل الشعر، إن انصرفت عقيصته فرق – وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره، أزهر اللون واسع الجبين، أزج الحواجب سوابغ في غير قرن. بينهما عرق يدره الغضب. أقنى العرنين له نور يعلوه. يحسبه من لم يتأمله أشم. كث اللحية سهل الخدين ضليع

الفم مفلج الأسنان. دقيق المسربة[١٠٣] كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة. معتدل الخلق بادن متماسك. سواء الصدر والبطن بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس. أنور المتجرد، موصول ما بين السرة واللبة بشعر يجري كالخط عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك. رحب الراحة شثن الكفين والقدمين سائل الأطراف خمصان الأخمصين مسيح القدمين ينبو عنهما الماء. إذا زال زال قلعا، يخطو تكفيا، يمشي الهوينا ذريع المشية إذا مشى[١٠٤] كأنما ينحط من صبب. وإذا التفت التفت جميعا، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء. جل نظره الملاحظة. يسوق أصحابه. يبدر من لقى بالسلام).

سأله الحسن: كيف كان دخوله منزله؟

قال هند: (كان دخوله لنفسه مأذونا له في ذلك فكان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزءا لله عز وجل، وجزءا لأهله وجزءا لنفسه. ثم يجعل جزءا بينه وبين الناس فيرد ذلك على العامة بالخاصة، ولا يدخر عنهم شيئا. فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل على قدر فضلهم في الدين. فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج. ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة عن مسألتهم. وإخبارهم بالذي ينبغي له. ويقول: "ليبلغ الشاهد الغائب". يدخلون روادا ولا يتفرقون إلا عن ذواق (يتذوقون العلم) ويخرجون أدلة (يدلون الناس).

سأله الحسن: كيف كان مخرجه؟

قال هند: (كان يخزن لسانه إلا فيما يعنيه أو يعنيهم، ويؤلفهم ولا ينفرهم. ويكرم كل كريم قوم ويوليه عليهم. ويحذر الناس ويحترس منهم،من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه. ويتفقد أصحابه ويسأل عما في الناس. يحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف. لا يميل مخافة أن يغفلوا ويميلوا. لا يقصر عن الحق ولا يتجاوزه. الذين يلونه من الناس خيارهم. وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة).

وسأله الحسن عن مجلسه فقال:

(كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله عز وجل.ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها (الاختصاص بمكان في المجلس) وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي المجلس ويأمر بذلك.

---

(١٠٣) شعره دقيق من الصدر إلى البطن.

(١٠٤) لم يكن يماشي أحدا ينسب إلى الطول إلا طاله.

ويعطي كل جلسائه نصيبه. لا يحسب أحد من جلسائه أن أحدا أكرم منه. من جالسه أو قاومه لحاجة سايره حتى يكون هو المنصرف.. ومن سأله حاجة لم ينصرف إلا بها، أو بميسور من القول. قد وسع الناس خلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء.مجلس مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة وصدق. لا ترتفع فيه الأصوات.. وتؤبن فيه الحرم (ذكر القبيح مرفوض) ولا تنثني فلتاته يتواصون فيه بالتقوى. متواضعين يوقرون فيه الكبير ويحترمون الصغير ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب).

قال الحسن: كيف كانت سيرته في جلسائه؟

قال (كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق (صياح) ولا فاحش ولا عياب ولا مداح. يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤنس منه ولا يحبب فيه. قد ترك نفسه من ثلاث: المراء والإكثار وما لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدا ولا يعيره ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه.. إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير. وإذا سكت تكلموا. ولا يتنازعون عنده الحديث. متى تكلم أنصتوا له حتى يفرغ. حديثه عندهم حديث أولهم. يضحك مما يضحكون ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته. حتى كان أصحابه يستجلبونهم. فيقول: إذا رأيتم طالب حاجة يسترفدها فارفدوه. ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ (مقارب غير متجاوز في مديحه الحد) ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام).

قال الحسن: كيف كان سكوته؟

قال هند: (كان سكوته على أربع. على الحلم والحذر، والتقدير والتفكير. فأما تقديره ففي تسوية النظر والاستماع من الناس.

وأما التفكير ففيما يبقى ويغني.

جمع له الحلم والصبر فكان لا يغضبه شئ ولا يستفزه.

وجمع له الحذر في أربعة. أخذه بالحسن ليقتدى به وتركه القبيح ليتناهى عنه واجتهاده الرأي فيما أصلح أمته والقيام فيما هو خير لهم وفيما جمع لهم خير الدنيا والآخرة).

* * *

وإنك لتقرأ وصف البدر أو الشمس لوجهه في كل موقع على ألسنة الرجال والنساء كما سلف. تقول امرأة حجت معه لأي إسحق الهمداني: (كالقمر ليلة البدر. ولم أر قبله ولا بعده مثله)، وتشبهه الربيع بنت معوذ: (لو رأيته لقلت الشمس طالعة)، وأبو هريرة يقول (كأن الشمس تجري في وجهه)، ولما سئل البراء بن عازب: أكان وجهه كالسيف؟

قال: لا. مثل القمر. وقال كعب بن مالك: (كان إذا سر كأن وجهه قطعة قمر. فكنا نعرف ذلك منه)، وقد سبق علينا قول ابن عباس إنه يغلب ضوء الشمس.

وتشبيهه بكوكب أو نجم أمر طبيعي فهو يجئ إلى الدنيا بأمر السماء. وكأن وضعه من خلق الله وضع كوكب له فلك خاص به. وأعظم ما في وجودنا الشمس والقمر الذي يسطع بنورها وليس من فيه نارها.

ومن الطبيعي كذلك أن يتردد التشبيه بما نشهد في السماء على ألسنة من ألفوه في دخائله. قالت أم المؤمنين عائشة: (كنت قاعدة أغزل والنبي ﷺ يخصف نعله فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد "نورا" فبهت. فقال مالك بهت؟ قلت جعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا ولو رآك أبو كبير الهذلي – شاعر هذيل – لعلم أنك أحق بشعره حيث يقول:

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت بروق العارض المتهلل

فهذه أمور مجتمعة في خاطرة طارئة، بمناسبة واقعة دارجة، يمثل لها بشعر شاعر مخضرم، فيه برق السماء.

ولما أهديت إليه شملة سوداء فلبسها قال لها (كيف ترينها علي يا عائشة) قالت: (ما أحسنها عليك يا رسول الله يشوب سوادها بياضك وبياضك سوادها) وأبو هريرة يصف هذا البياض كأنه صنع من فضة.

ولما قارب نهاية حياته لم يكن في شعره ولحيته عشرون شعرة بيضاء. وأم المؤمنين عائشة أبلغ وأنفذ وأجمع حيث تقول: (كان أحسن الناس وجها وأنورهم لونا. لم يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر، وكان عرقه في وجهه مثل اللؤلؤ).

وللسائل أن يتساءل عن القوى البدنية أو الذهنية التي أمكنت "الرجل" من كل ما صنع في أيام كأيام الناس، لها ليل واحد ونهار واحد. والجواب في قوله تعالى {الله أعلم حيث يجعل رسالته} وبهذا تخرج من القياس على خصائص الناس كل المواهب أو القوى التي وعت "ماهية" هذا الكمال "البشرى" فلم يعرف له في أي موقف أو تصرف إلا صيغة التفضيل العليا ومنها الأقوى والأصح والأعدل والأرحم.

obeikandl.com

بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام

البيت:

بنى رسول الله بأم المؤمنين خديجة في دارها بمكة وهي من دور العلية المياسير. مبنية في أرض جبلية يرتفع عنها الطريق فينزل إليها الداخل بعدد من الدرجات توصل إلى ممر على يساره شبه مصطبة مرتفعة عن الأرض بنحو قدم. طولها عشرة أمتار وعرضها أربعة.

وعلى اليمين باب صغير يصعد إليه المرء بدرجتين يؤدي إلى طرقة ضيقة سقفها نحو مترين فيها ثلاثة أبواب، يفتح أولها من الجانب الأيسر على غرفة صغيرة مساحتها ستة أمتار كانت ممرا ومعبدا. ويؤدي الباب الأمامي إلى متسع طوله ستة أمتار وعرضه أربعة كان مخدع الزوجين. أما الباب الثالث فعلى يمين الداخل يفتح غرفة مستطيلة طولها سبعة أمتار. وعرضها أربعة كانت لبناته ﷺ.

وعلى طول هذا المسكن من الشمال فضاء مساحته ستة عشر مترا في سبعة، يرتفع عن الأرض بنحو متر كانت خديجة تخزن فيه تجارتها قبل زواجها من محمد. فلما تزوجته ثم اعتزلت التجارة استعملت هذه الساحة للاستقبال.

أما في المدينة فقد بدأ بالنزول في بيت أبي أيوب. وكان من طابقين بقى في أعلاهما مدة، ثم آثر النزول إلى الأول ليلقى فيه أصحابه.

ولما بنى مسجده أضاف غرفة لأم المؤمنين سودة وتلتها أخرى لأم المؤمنين عائشة إذ دخل بها. وكل منهما لصق للمسجد. أما سائر البيوت وفيها بيت لفاطمة عندما دخل بها علي، فكانت تبنى بجوار المسجد في ملك لحارثة بن النعمان الأنصاري.

وكان يفصل بين دار حارثة وبينها تنور يخبزون فيه سوية. فنعم حارثة في داره بالجوار الكريم لحجرات أهل الجنة أما المشربة التي اعتزل فيها نساءه، فكانت مجرد موضع مرتفع يقال له الخزانة، يرقى إليه على جذع من خشب وهي أشكل بمخزن صغير.

وأما فراشه عند أم المؤمنين عائشة فقد وصفته: من جلد حشوه ليف ثم جئ بسرير من خشبات مشدودة بالليف سيشتريها رجل في عهد بني أمية بأربعة آلاف درهم.

والفراش عند حفصة مسح غليظ من شعر يثنونه ثنيتين، والفراش من هذا القبيل عند سائر أمهات المؤمنين.

أما نظافة البيوت والمساحة التي تنبعث فيها فيصورها للناس قوله (إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود فنظفوا بيوتكم ولا تشبهوا باليهود).

وكان يرد الطعام الذي يهديه أبو أيوب إذا كان فيه ثوم أو بصل.

يقول أنس بن مالك: (ما شممت ريحا قط ولا مسكا ولا عنبرا أطيب من ريح رسول الله) ولقد كان يأمر المسلمين بإخراج قمامة الدار منها بقوله: "أخرجوا منديل الغمر من بيوتكم فإنه بيت الخبيث ومسكنه".

* * *

obeikandl.com

بناته ﷺ

بعث ﷺ وهو في دار أبي أيوب بالمدينة زيد بن حارثة وأبا رافع وبعيرين وخمسمائة درهم ليجيئا بزوجته سودة وبنتيه أم كلثوم وفاطمة، وأسامة بن زيد وأم أيمن امرأة زيد. وكانت رقية قد هاجرت إلى المدينة مع زوجها عثمان، وبقيت زينب عند زوجها بمكة أبي العاص بن الربيع. وخرج مع القادمين إلى المدينة عبد الله بن أبي بكر بعيال أبيه وفيهم عائشة لم يدخل بها رسول الله بعد.

ولما رجع أبو العاص إلى مكة بعد أن فك المسلمون إساره بعد انتصار بدر بقى بمكة وأخرج زينب إلى المدينة مع أخيه كنانة في هودج لها. فخرجت قريش في طلبها حتى أدركوها فروعوها وهي حامل فطرحت حملها. ونثر كنانة كنانته ثم قال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهما. فتكركروا عنه.

وأتاه أبو سفيان في جلة من الرجال فقال: (أيها لرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك: إنك لم تصب. خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية. وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا (يقصد يوم بدر)، وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس أن ذلك من ذل أصابنا. ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، ولكن ارجع بها حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها فسلها سرا وألحقها بأهلها. ففعل.

ثم خرج بها ليلا حتى أسلمها إلى زيد وأبي رافع في خارج مكة. وكان رسول الله قد بعث خاتمه مع زيد لتجئ معه إذا رأت الخاتم. فتلطف زيد فأعطاه راعيا سلمه لها فعرفته فقالت من أعطاك هذا؟ قال رجل في ظاهر مكة. فخرجت حتى لقيت زيدا وأبا رافع فقدموا المدينة. وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول "هي أفضل بناتي. أصيبت في".

واستمرت زينب بالمدينة تنتظر إسلام زوجها حتى لقيته سرية للمسلمين أميرها زيد فأسرته وقد أسلفنا قصة غسلامه.

والمقصود بأهل بيت[١٠٥] رسول الله ﷺ في الباب الحالي زوجاته وبناته تتصدرهن أم المؤمنين خديجة ومنها بنوه ومنهم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ومن فاطمة العقب الباقي لرسول الله والذي يملأ التاريخ ذكره. والمؤلفات فيهم لا تحصى ومن الانتساب إلى فاطمة قامت دول ذوات عدد، كبرى وصغرى.

أما فاطمة فتمشي مشية أبيها وهي أحب الناس إليه. وكانت آخر من يراه إذا خرج لغزو أو سفر وأول من يراه إذا رجع.

عاشت في بيت علي عيشة زوجها الذي يضعه المتصوفة في قمتهم من تقشفه، ويضعه التاريخ بين أبطال حروب النبي في المكان الأول. وإذا أطلق الناس على العالم بين الصحابة وصف "الإمام" فإنه هو. أدخلها رسول الله إليه في (خميل) (فراش تنام عليه)، وقربة (للماء)ووسادة أدم (جلد) حشوها إذخر (ورق شجر الإذخر). اشتكيا إلهي حالهما فقضى أن عليهما الخدمة الداخلية (في البيت)، وعليه الخدمة الخارجية.

وكم كانت له من وظائف خارجية في الأمة والدولة! ومع ذلك كان يرى بطل الإسلام يحمل الدقيق إلى داره ويعمل ليعيش، ويحلم التمر والبلح في ثيابه ويقول:

لا ينقص الكامل من كماله ما جر من نفع إلى عياله

وأجرت فاطمة الرحى حتى أثرت الرحى على يدها وقمت البيت حتى اسودت ثيابها وأصابها من ذلك ضر.

وكلت فاطمة من خدمة البنين وهم يتتابعون، عاما بعد عام، الحسن والحسين ومحسن... وعلي يحمل الألوية والرايات ويتلقى شرف البطولات في السرايا والغزوات إلا غزوة تبوك، يوم خلفه رسول الله في المدينة في أهله وأرضاه إذ فوت عليه أمل البطولة فيها بأنه منه بمنزلة هرون من موسى.

علمت فاطمة يوما أن أباها جاءه بين الغنائم سبي فقصدت إليه تشكو ما تلقى يدها من الرحى فلم تصادفه فشكت إلى عائشة فأخبرته.

---

(١٠٥) الأقوال في تعريف أهل البيت متعددة أوردناها في كتابنا (الإمام جعفر الصادق) طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

قال علي: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبنا نقوم. فقال ﷺ: "مكانكما" فقعد بيننا حتى وجدت برد رجليه على بطني. فقال: "ألا أدلكم على ما هو خير لكما مما سألتما؟ إذا أخذتما فراشيكما فسبحا ثلاثا وثلاثين وحمدا ثلاثا وثلاثين وكبرا أربعا وثلاثين، فهو خير لكم من خادم" فما تركتها بعد.

فقيل له: ولا ليلة صفين؟ (معركته الشهيرة مع جيش معاوية) – قال ولا ليلة صفين.

واصطحبتها ذات يوم أم الحكم وأختها ضباعة بنتا الزبير عم رسول الله ليسألاه شيئا من السبي، فأجاب ﷺ "سبقكن يتامى بدر. ولكن سأدلكن على ما هو خير. كبرن الله عز وجل على أثر كل صلاة ثلاثا وثلاثين تكبيرة، وثلاثا وثلاثين تسبيحة وثلاثا وثلاثين تحميدة. ولا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وهو على كل شئ قدير".

وكره ﷺ زيارة بيت فاطمة إذ رأى على بابها سترا موشى ورجع. فكره إليها مجرد التفكير في ماهرظ الرفاهية.

وما رئيت فاطمة ضاحكة بعد وفاة أبيها، بل انتظرت ما اسر إليها به في أيامه الأخيرة: أنها أول القوم لحوقا به فكان لحاقها بعد ستة أشهر.

وكان لأختها زينب بنت من أبي العاص تدعى أمامة يحملها رسول الله في الصلاة فإذا ركع أو سجد تركها وإذا قام حملها. ولما أهديت إليه قلادة من (خرز يماني) قال: "لأدفعنها إلى أحب أهلي إلي" فدعا أمامة فأعلقها في عنقها.

ووصت فاطمة وهي تموت عليا ليتزوج منها من بعدها فصنع. ولما طعن خاف أن يتزوجها معاوية بعده، فأمر المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب أن يتزوجها بعده فتزوجها، ولم تلد لعلي كما لم يكن لخالتها أم كلثوم أو رقية زوجتي عثمان عقب. وقد توفيت أمها وخالتاها في حياة النبي عليه الصلاة والسلام.

وإجمال الحديث عن الزهراء لا يأذن بالسكوت عما كرمتها به السماء، حين خصها النبي بنهي علي عن أن يتزوج من بنت أبي جهل، فأبقى فيها وجه شبه بأمها وأخواتها رضي الله عنهن في أنه لم تشرك واحدة منهن في زواجها طول حياتها سواها.

وقد أسلفنا زواج رقية وأم كلثوم من عثمان ووفاتهما.

نساء النبي

أما "نساء النبي" فكل منهن جديرة بما خصها به العلماء من مؤلفات ضافية وأولاهن أول وزير له، ومنهن بنت الصديق وبنت الفاروق ومنهن من زوجها الله إياه ومنهن ذوات الهجرتين. وبين هؤلاء بنت زعيم المشركين أبي سفيان. ومنهن من تمحض زواجها في بره بالشهداء من أبطاله أو استرضاء العدو المنهزم، أو التي تزوجها تكريما لها ولذويها معها. ويلتحق بهن أم ولده الذي امتحنه الله بوفاته في أخريات حياته.

وهن مدرسة لمفاخر الإسلام في معاملة الرجل لزوجته ومعاملتها له.

ومنهن معلمات للفقه وراويات للحديث في حياته وبعد مماته. وإلى عائشة وعلمها تنتسب "مدرسة المدينة" مثلما تنتسب إلى أبي بكر أو عمر. وكان ﷺ يأذن لهن في أن يعلمن النساء. وإنما أراد بالإذن لهن أن يضع المرأة موضعها من العلم والتعليم والمقدرة. فروين للناس عنه نحو ثلاثة آلاف حديث. لعائشة وحدها ٢٢٧٤ ولأم سلمة ٣٧٨ ولأم حبيبة ٦٥ ولحفصة ٦٠ ولميمونة ٤٦ ولزينب بنت جحش ١١.

ولقد أثبت رسول الله باصطحاب من تخرجها القرعة معه في معاركه أن للمرأة مكانها في جوار زوجها، وكان في غنى عن صحبتهن لحاجات نفسه منذ كان غيابه في غزواته أياما أو أسابيع، وهو أصبر الصبر على المشقة وأملكهم لإربه وأكثرهم انشغالا بما نهد له.

وهو إذ جعل المرأة راعية ومسئولة عن رعيتها جعل حسن تبعلها يعدل أكثر ما يعمل الرجل، وجعل للمرأة الصالحة المقام الأول في عطاء الله فقال (إن خير ما يرزق الرجل المرأة الصالحة).

ولعل الدرس الأول من زواج النبي قدمه لنسائه بالأنموذج الذي تسابقن في مراعاته وهو الزهد عن وجد، لقاء ما أغدق الله من عطاء شريعته على النساء عامة. ومصداق تكريمهن قول النبي عن النساء كافة وعن نسائه خاصة "خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي" وقد تكاثرت في فعله وقوله آيات الاحترام والمحبة والرحمة للزوجة وللمرأة عامة. ومن ذلك قوله: "خدمتك زوجتك صدقة" و "كل لهو المؤمن باطل إلا في ثلاث: تأديبه فرسه، ورميه القوس، وملاعبته امرأته، فإنه حق". و "أوصاني جبريل بالمرأة حتى ظننت أنه لا ينبغي طلاقها إلا من فاحشة مبينة".

وفي الكفة الأخرى لميزان الأسرة قال للنساء (أيما امرأة اختلعت من زوجها من غير بأس به لم ترح رائحة الجنة).

وكان ﷺ يلتزم التسوية بين زوجاته في النفقة والملبس والزيارة والوقت، لكل من الشابة والعجوز والجميلة والعادية ليلتها، وإذا زار إحداهن زار كلهن، وإذا كان الناس يكثرون الهدية إليه في يوم عائشة فهو يبعث لكل منهن نصيبها من هداياه.

لقد أرسل جبريل إلى اثنتين منهن السلام، ونزل القرآن في اثنتين منهن. ولإحداهن في الفتح المبين المشورة المشهورة،وعلىكلهن تعلم المسلمون.

دخل عليه أبو بكر وعمر يوما فوجداه واجما وهن واجمات. قال الصديق ليذهب عنه الحزن إذ أحس "الصديق" بحزنه وبسببه: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة (زوجته) سألتني النفقة فقمت فوجأت عنقها. قال ﷺ: "هن حولي كما ترى يسألنني النفقة"، فقام أبو بكر وعمر يجأ كل منهما عنق بنته (عائشة وحفصة) ويقولان: تسألن رسول الله ماليس عنده.. قالتا: والله ما نسأله شيئا أبدا ليس عنده (أي أن الخمس في الغنائم كثير) [١٠٦].

واعتزلهن شهرا فنزل قوله تعالى: {يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما} الأحزاب ٢٨ – ٢٩ وقال رسول الله لعائشة (لا تعجلي حتى تستأمري أبويك) قالت (ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة) وبادرت أم سلمة تقول: اخترت الله ورسوله وقمن جميعا يعانقنه. والله قد علمهن مكانتهن حين قال: (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء} ٠ (الأحزاب ٣٢). فإذا كان النبي يتحمل الشدة فهن يتحملنها معه، ولقد تعلمن عليه (تسبيح الله وحمده) كما صنعت فاطمة وعلي وبنتا عمه. أما الرفاه فملهاة عن أمور المسلمين، وخروج عن الأسوة الحسنة من عمل الرسول في خصيصة نفسه وفي خصوصهن.

* * *

كان بنيان بيوتهن من جريد النخيل مطينا، وبعضها من حجارة مرضومة وسقفها من جريد. ويقول الحسن البصري إنه كان ينال السقف بيده.

---

(١٠٦) الأنفال ٤١ {واعلموا أن ما غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل..} وأكثر الخمس مردود على المسلمين.

أما الحياة في داخل البيوت ففيها قول علي في وصف صاحبها ﷺ أجود الناس كفا وأجرأ الناس صدرا وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة "وأكرمهم عشرة"، من رآه بديهة هابه ومن خالطه أحبه"، وما أكرم العشرة لزوجاته اللواتي تجلى الجانب الإنساني بتمامه منه في صلاتهن به. وكان من تقدير الحكيم العليم ألا ينجبن. فأمحضن شخصه حبهن. ومن عطاء النبوة عظمت مواهبهن:

أما أم المؤمنين خديجة فهي مثل أعلى فيما تستطيعه الزوجة في حياة الزوج وإن كان نبيا.

ولما أمر رسول الله ابن أخيها الزبير يوم فتح مكة أن يغرز راية الجيش (بالحجون) حيث قبرها هناك كان يذكر بعد أحد عشر عاما حافلة بالعظائم حين جاء نصر الله والفتح: أن ما بدأه معها قد أبلغه الله غايته. وله الحمد.

وكانت سودة بنت زمعة زوجة لابن عمها السكران بن عمرو فترملت بعد موته وقد هاجر إلى الحبشة معه من بني عامر ثمانية على الرغم من أخيه سهيل بن عمرو – سفير قريش يوم الحديبية – ولسهيل نفسه ابن وبنت وإخوة ثلاثة في المهاجرين إلى الحبشة وكان حريا أن يفتنها في دينها بعد إذ رجعت.

ولما بنى رسول الله بعائشة، وهبت سودة يومها لعائشة وتوفيت سودة آخر خلافة عمر.

وبقيت عائشة في بيت أبيها سنوات حدثت فيها الانتصارات الفكرية والعسكرية التي شحذت ذكاءها وأكملت نضجها وكان فيها من الصديق كثير، ومن فنون الأدب والكياسة التي يعرف بها بنو تيم تراث جم. ويذكر التاريخ لها من سنواتها الأولى مشاركتها في سر الهجرة وجهاز المهاجرين. وإن كان لأختها "أسماء" القدح المحلى فيه.

وبعد أن بنى بها رسول الله بلغت مبلغها العظيم في الدين وفي العلم. إليك أمثالا ثلاثة لا تجد لأحدها نظيرا في البيان في أي لسان. يقول لها النبي: "إني أعلم إذا كنت علي غضبى وإذا كنت عني راضية" فتسأله كيف؟ فيقول "أما إذا كنت راضية فتقولين: لا ورب محمد. وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم" فتجيبه من فورها قائلة: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك! ويقول لها يوما: أغرت؟ فتعاجله بالجواب: وما لي ألا يغار مثلي على مثلك.. ولا غرو فهي صاحبة المقولة الذائعة عن الإسلام ورسوله حين سألها هشام بن حكيم عن خلق رسول الله فأجابت [كان خلقه القرآن].

ومن فقهها الذي لا ينساه الرجال أو النساء تجيب سائلتها عن زينة المرأة لرجلها: (إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلي). قال ابن شهاب الزهري – شيخ مالك – لو جمع علم عائشة وعلم أزواج النبي ﷺ وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل.

ولما أقبلت الدنيا على المسلمين لم تبرح نطاق ما رباها عليه النبي فهي الأم المعطاء: جاءها من عطائها سبعون ألفا ففرقته وهي ترقع ثوبها. وقسمت في الناس مائة ألف ثم أفطرت على خبز شعير. ومن بعد ذلك بعث إليها ابن أختها عبد الله بن الزبير مائة وثمانين ألفا فجعلت تقسمها بين الناس حتى انتهت فقالت لجاريتها هلمي. أفطري. فجاءتها بخبز وزيت وقالت لها أما استطعت فيما قسمت أن تشتريك بدرهم لحما تفطرين عليه... قالت: لا تعنيني. لو كنت ذكرتني لفعلت.

وكان نساء النبي يعلمن مكانتها في قلبه. ووقفن جميعا معها يوم حديث الإفك.

* * *

ومات خنيس بن سراقة زوج حفصة من جراح إصابته يوم أحد فذكرها رسول الله لأبي بكر. وحزن عمر لحالة بنته وهي في الثامنة عشرة، فعرضها على أبي بكر فسكت. ثم عرضها على عثمان. وكانت زوجته رقية قد ماتت يوم بدر. فلم يبعد استعدادا للزواج، ولعله كان يفكر في أم كلثوم أخت رقية، فشكاهما إلى رسول الله فأشكاه فقال ﷺ "يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة"... وراح عمر يبشر أبا بكر. ففاجأه أبو بكر بقوله: إنما سكت عندما كلمتني لأن رسول الله كان ذكرها لي. وبزواج رسول الله من حفصة صار زوجاته ثلاثا مجتمعات.

وأثر حفصة في التاريخ الإسلامي عظيم لاحتفاظها بالنسخة الأصلية للقرآن إذ كانت عندها من عهد أن جمعه أبو بكر فنسخ عثمان منها المصحف "العثماني" ثم أعادها إليها. ولم تشترك في الفتنة بعد عثمان – وماتت قبل عائشة سنة ٥٧.

ولم تلبث بيوت النبي أن أصبحت أربعة بزواجه من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت زوجا لعبد الله بن جحش ابن عمة الرسول وقد استشهد في أحد وهي تلقب بأم المساكين من قبل أن يتزوجها وقيل مات عنها عبيدة بن الحارث من إصابته يوم بدر وقد ماتت بعد قليل.

وفي السنة الرابعة دخل رسول الله بأم سلمة إذ تزوجها لموت زوجها من جرح نغر عليه أصابه يوم أحد، وخاف النبي عليها بني مخزوم وقد قتل يوم أحد أربعة منهم فيهم ثلاثة من أولاد زعمائهم، فأصبح زوجات النبي في السنة الرابعة خمسا. مات أزواج أربعة منهن مجاهدين. وعائشة تشركهن في أن أسباب زواجهن سياسية. فإنما أصهر بها إلى أبي بكر.

ولئن كانت خصائص عائشة أقرب إلى قلبه ﷺ فلقد شغلت أم سلمة بين أمهات المؤمنين مكانها بجدارة، ومن فضل الله أن يجعلها صاحبة رسول الله وهو يقرع بين نسائه في غزوات كان لها في أثنائها أكثر من مشورة مشكورة.

كانت أم سلمة وزوجها أول مهاجرين إلى المدينة لولا أن قومها منعوها من الهجرة وتركوا أبا سلمة فهاجر ثم تخاطف بنو عبد الأسد ابنها سلمة من بين يديها فبقيت زمانا تبكي على الملأ زوجها وولدها وهجرتها حتى رق قومها وبنو أسد لحالتها فخلوا سبيلها وولدها.

قالت: فرحلت بعيري ووضعت ابني في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ما معي أحد من خلق الله، حتى إذا كنت على فرسخين من مكة لقيت عثمان بن طلحة فسألني فقال والله مالك من مترك. فها هي تهاجر للحبشة في فوجها الأول وترجع وزوجها غير هيابين من بني مخزوم أو بني أسد بمكة وتهاجر إلى المدينة في جسارة لا يحدثها إلا إيمان عظماء الأقوياء.

أما أبو سلمة بن عبد الأسد فابن عمة النبي برة أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب. وشهد بدرا وأحدا وفيها أصيب بجرح التأم فعقد له رسول الله لواء سرية إلى قطن فيها أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص فاستعاد للمسلمين مكانتهم في القبائل بعد وقعة أحد لكن الجرح انتكأ فمات والنبي إلى جواره.

وخطبها أبو بكر فرفضت في رفق. ورفضت عمر من بعده. كذلك، حتى إذا بعث النبي يخطبها تمنت لو كان لها ذلك الشرف وأضافت: إني غيرى مسنة ذات عيال.. وقال عليه الصلاة والسلام: "أما أنك مسنة فأنا أكبر منك وأما الغيرة فيذهبها الله عنك. وأما العيال فإلى الله ورسوله".

وأبوها أبو أمية بن المغيرة المخزومي الملقب بزاد الركب لأن من كان في ركبه فزاده من زاده. وهو الذي أشار على القبائل إذ اختلفت عند رفع الحجر الأسود أن يرفعه أول داخل فكان محمد "الأمين" أول داخل.

وبنو مخزوم على كثرة صناديدهم يشتهرون بجمال نسائهم وبقيت شهرتهم بقاء امتياز القبائل العربية من سائر المسلمين حتى قامت الدولة العباسية، فقالوا للسفاح أول خلفائهم: (إن المخزوميات رياحين العرب وعندك منهن يا أمير المؤمنين ريحانة الرياحين).

وكبرت أم سلمة على أن تغار.. وبنتها زينب من فقيهات الصحابة، وفي بيت أم سلمة نزل القرآن بقبول توبتي أبي لبابة وكعب بن مالك وصاحبيه.

واقترنت مشورتها بالفتح المبين.

وفي فتح خيبر وفتح مكة وغزو ثقيف وهوازن كانت هنالك.

ولما حارب عليا أعداؤه بغير حق قدمت له ابنها عمر ليحارب معه وماتت عن نيف وثمانين عاما بعد إذ جاءها نبأ مصرع الحسين في كربلاء سنة ٦٠هـ.

أما زينب بنت جحش فبنت عمة رسول الله، أراد أن يزوجها زيد بن حارثة ليدل على أن المسلمين سواسية كأسنان المشط فامتنعت وأهلها بادئ الأمر حتى نزل قوله تعالى: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم} وشكاها زيد بعد الزواج للرسول فلم يصلح أمرهما حتى طلقها، ثم نزل حكم السماء ينفي التبني في الإسلام قال تعالى {... وما جعل أدعياءكم أبناءكم... ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله...} الأحزاب ٤ – ٥ ثم قال {فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا} الأحزاب ٣٧.

كانت في الخامسة والثلاثين عندما "زوجتها المساء" وعائشة تقول عنها: كانت أحب نسائه إليه فيما أحسب بعدي. وقالت لم أر امرأة خيرا في الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظمهم صدقة وأشد ابتذالا في العمل الذي يتصدق به ويتقرب به إلى الله عز وجل وروت قول رسول الله "أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا" وقالت: فكنا إذا اجتمعنا في بيت واحد بعد وفاة رسول الله ﷺ نمد أيدينا في الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل حتى توفيت زينب بنت جحش ولم تكن يدها بأطول. فعرفنا حينئذ إذ ماتت أولهن أنه إنما أراد طول اليد بالصدقة.

كانت صناع اليدين تدبغ وتخرز لتتصدق. ولما أرسل إليها عمر عطاءها اثنى عشر ألفا جعلت تقول: اللهم لا يدركني هذا المال في قابل – فإنه فتنة. ثم قسمته في الناس.

ووقف عمر ببابها فقال: بلغني أنك أنفقت المال وهذه ألف تستبقينها. وأخذتها وأنفقتها في الناس وتوفيت سنة ٢٠.

وفي سنة ست جاءت جويرية بنت الحارث فعاشت حتى سنة ٥٦. يضرب بها المثل في السخاء والوفاء والعبادة وقد سبق الكلام عنها في غزوة بني المصطلق. وبعد غزوة خيبر سنة سبعة جاءت صفية بنت حيي وكانت زوجة لفارس قومها وشاعرهم سلام بن الحقيق ثم خلف عليها كنانة بن الربيع بن حقيق صاحب حصن الغموض بخيبر. وفي حديث أنس (قال لها هل لك في؟ قالت: يا رسول الله قد كنت أتمنى ذلك في الشرك فكيف إذا أمكنني الله منه في الإسلام) وكان عتقها صداقها.

وفي السنة السابعة تنصر في مهاجرة الحبشة زوج أم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان) فأرسل الرسول من أناب النجاشي عنه في زواجها فمهرها النجاشي أربعمائة دينار.

وقدمت أم المؤمنين أم حبيبة في صحبة جعفر بن أبي طالب عند فتح خيبر وكان النبي قد أرسل إلى النجاشي في طلب مهاجرة الحبشة ولمح رسول الله جعفر فوثب من فوق راحلته فالتزمه وقبل بين عينيه وقال: "ما أدري بأيهما أسر بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر" ونظر في بقية الركب فوجد (أم حبيبة) تنتظره.

وإذا كانت أم حبيبة بنت زعيم المشركين بمكة وقائد جيوشهم فقد فاقت أباها بالإسلام وبالهجرة إلى الحبشة، مع الضيقة والمشقة في القارة الموحشة، وهي بعد مثل رسول الله حفيدة عبد مناف.

لم يكن لها شباب عائشة ولا حسن أم سلمة أو جمال زينب، لكن اعتزازها بالإسلام على رغم أبيها وبزواج النبي منها وهي الحبشة زاداها تثبيتا وعزة، ومن حبها لرسول الله وإيثارها إياه قالت له يوما: (هل لك في عزة بنت أبي سفيان) – أخت لها صغيرة – قال: (أفعل ماذا)؟ قالت: تتزوج. قال: "أتحبين"؟ قالت لست لك بمخلية وأحب من شركتني فيك أختي.

قال: "إنها لا تحل لي".

قالت: بلغني أنك تخطب درة.

قال: "أبنت أم سلمة".

قالت: نعم.

قال: "لو لم تكن ربيبتي ما حلت لي. إنها ابنة أخي من الرضاعة أرضعتني وأباه ثويبة: فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن".

ماتت أم حبيبة في إبان حكم معاوية سنة ٤٤ وأحاديثها في الكتب الستة ترويها ربيبتان للنبي بنتها حبيبة وزينب بنت أم سلمة.

وفي عمرة القضاء في خواتيم سنة سبع أفضت ميمونة بنت الحارث الهلالية وكانت في السادسة والعشرين وهي خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن العباس، إلى أختها أم الفضل فأفضت هذه إلى زوجها العباس بن عبد المطلب، أن ميمونة تريد الزواج من النبي ﷺ.

وأرسل رسول الله جعفر بن أبي طالب زوج أختها الأخرى (أسماء بنت عميس) وأصدقها أربعمائة درهم. وتولى العقد عنها زوج أختها العباس وبنى بها رسول الله بسرف على مقربة ميلين من مكة وعندما دنت منيتها بعد أكثر من أربعين عاما أوصت بأن تدفن حيث بنى بها رسول الله، فلم يدفن خارج المدينة من نساء النبي إلا الأولى في الحجون بمكة والأخيرة بسرف رضي الله عنهن جميعا.

* * *

ولم يكن لمارية نصيب في بيت كبيوت الزوجات بجوار المسجد إذ كانت سرية قال عنها المقوقس في كتابه للنبي (وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم) وقد أسلمتا على يد حاطب بن أبي بلتعة وهما معه في الطريق.

فأنزل النبي مارية بمنزل قريب من المسجد، وأهدى الأخرى لحسان بن ثابت. وولدت مارية لرسول الله إبراهيم في السنة الثامنة للهجرة وكان قد نيف على الستين فكانت هبة إبراهيم له قدرا من السماء على كل نسائه أن يهبه الله – على الكبر – ابنا عن غير طريقهن، فثقلت عليهن. ولذلك حولها إلى مال له في موضع قريب من المدينة فيه نخل، ولما ولدت قال ﷺ أعتق أم إبراهيم ولدها. وقد مات سنة خمس عشرة.

بهذا اجتمع في عصمة رسول الله المسلمات ومن تركن بإسلامهن الوثنية أو اليهودية أو القبطية – وكان تحديد الزواج بأربع في أواخر السنة الثامنة (النساء ٣) كما أمره القرآن – مع هذا – بأن لا يتبدل بأزواجه إلا ما ملكت يمينه (الأحزاب ٥٢) – وكان قد عبر الستين حاملا تبعاته الكونية

ومع ذلك شهدن منه حبا وعدلا وسع تباينهن. وكان نصيب كلمنهن منه حسبها لتعيش في بحبحة من السعادة. وفي العدل سعة[١٠٧].

وقضى الله أن يموت إبراهيم قبل أن يبلغ العامين فوضعه عليه الصلاة والسلام في حجره وهو يجود بنفسه فذرفت عينتا رسول الله..

قال له عبد الرحمن بن عوف: (أي رسول الله هذا الذي تنهى الناس عنه. إن يرك المسلمون تبكي يبكوا).

قال: (إنا هذا رحم. ومن لا يرحم لا يرحم. إنما ننهى الناس عن النياحة وأن يندب الرجل بما ليس فيه).

ثم قال: (لولا أن هذا سبيل مئتاه (كثير الإتيان) وأن آخرنا لاحق بأولنا لوجدنا عليه وجدا غير هذا وإنا عليه لمحزونون. تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وفضل رضاعه في الجنة) [١٠٨].

---

(١٠٧) تقول أم المؤمنين أم سلمة: (كان عيشنا مع رسول الله ﷺ اللبن. وكانت لي لقحة وكنا منها فيما شئنا من اللبن. وكانت لعائشة رضي الله عنها لقحة فكانت اللقاح تروح على أبياتنا فيؤتى بهما فتحلبان.

وكانت له ﷺ سبع لقاح يراح إليه بلبنهن كل ليلة. وكان له من الغنم سبعة ومن الأعنز سبعة ترعاهن أم أيمن. وهذه المنائح ترعى بناحية أحد وتروح كل ليلة على البيت الذي يدور فيه ﷺ وكان أكثر عيشنا من الإبل والغنم).

وكان ﷺ يقول "ما من أهل بيت عندهم شاة إلا وفي بيتهم بركة"، وكانت له ثلاث صفايا (ما خصه من الغنائم): بنو النضير لنوائبه (وفدك) لابن السبيل وخمس "خيبر"جزأه ثلاثة أجزاء جزأين للمسلمين وجزءا ينفق منه على أهله فإن فضل فضل رده على فقراء المهاجرين.

(١٠٨) كانت مارية وأختها من مدينة (أنصنا) في الجانب الشرقي من النيل قبالة مدينة الأشمونين الحالية بمحافظة أسيوط بمصر وكان بها مقياس النيل من قديم العصور، جدده معاوية في إبان حكمه. مما يدل على أنها كانت من مدائن مصر ذات الشأن.

obeikandl.com